ادمون صبري

هارب من الظلم

اقاصيص انسانية

ساعدت وزارة المعارف على نشره

أدمون صبري

هارب من الظلم

أقاصيص انسانية

ساعدت وزارة المعارف على نشره

مطبعة النجوم ــ بغـــداد

١٩٦٠

هارب من الظلم

لم أكن أدري أي شيء عن الرجل الذي يسكن جواري ولم أكن أدري أيـة حرفة يحترف ، فقد لقيته مرة او مرتين يجتاز الممشى الضيق حاملاً على كتفيه بساطين صغيرين يلتمس بيعهما في المدينة الصغيرة أســـوة بالباعة المتجولين ، ولقيته بعد حين يحمل الى غرفته كيساً من الباقلاء سرعان ماصار كل مساء يسلق كمية منها في قـــدر صغير لبيعه الى صبيان الازقة : فقلت لنفسي لعل الرجل أبدل عملاً بعمل ، فقد انقضت أشهر الشتاء وقلت حاجة الناس الى الابسطة .

كان قليل النوم ، فغالباً ما أجد مصباح غرفته مضاء حتى الساعة التي تسبق منتصف الليل ، ويغلب على ظني أنه يقرأ او يدون شيئاً ما على الورق ، ولكن ما هو ذلك الشيء وما أهميته ، وعلام رجل مثله شبه عاطل يسهر من أجل أن يقرأ أو يسود اوراقاً ، واحياناً يغيب عن المنزل بضعة أيام ويعود فجأة فى الفجر او مع الليل ويستأنف عمله فى الصباح دون ان يبدو عليه أنه قد سافر الى جهة بعيدة .

ولو كنا نعيش في جو مسالم هانيء لما وجدت في الامر كله تعقيداً اوريبة،

ولسعيت للتعرف على جاري والتماس صداقته ومحبته ، غير اننا كنا نعيش في جو راعب مقيت مشحون بالخيفة والتوجس وتوقع الشر حتى من الاحبة والاصدقاء ، اذ كانت ايام،عصيبة شددت فيها سلطات الحكومة البائدة مراقبتها على الفارين ومطاردتهم فى كل مكان اثر مظاهرات كبرى قامت في انحاء البلد تنادى بسقوط الملكية والاستعمار والدعوة الى حكومة جمهورية ديمقراطية شعبية ، وبعد ان فتكت السلطات بعشرات المواطنين وصرعتهم برصاصها قامت بحملات هستيرية لالقـــاء القبض على آلاف الاحرار وزجهم في المعتقلات . وقد بلغ الى علمها ان كثيراً منهم قد التجأ الى الفرار والاختفاء في امكنه منعزلة ، فأوفدت جواسيسها للبحث عنهم .

كنت قد فررب متخفياً في زي تنكري ، ضارباً في أرض بعيدة ، مخلفاً ورائي بلدتي الحبيبة الباسلة مطوقة بطابور ضخم من شرطة الحكومة البائدة ، قد سدوا منافذ الطرق كلها ومنعوا عن الناس الماء والطعام والسفر حتى يسلموا اليهم قادة الحركة ومدبريها بغية اعدامهم . ولقد شهدت بعيني مصرع مناضلة جريئة أبلت اعظم البلاء ، وهي امرأة لاتقرأ ولا تكتب، كانت تنتقل بين سطوح المنازل تسقى المقاتلين الماء بمشربة كيما يتزحزحوا لحظة عن مواقعهم . كانت تهزج مثل بطلة من بطلات طروادة يئز الرصاص من فوق عصابتها هازئة مستبسلة ، تسخر بالحكومة الخائنة المأجورة التي تربد كتم انفاس الاحرار، وكانت نهايتها طلقة واحدة اخترقت صدرها فتهاوت المشربة من بين يديها وانسفح ماؤها ، ثم خرت هامدة تلعن الظلم والظالمين. لقد كانت شهيدة . كان الحال اشبه بما يفعل البرابرة والغزاة في حصار المدن في العهود

الغابرة ، وقد بلغ علمي ان بلدتي قـــد سقطت بأيديهم وعملوا في ابنائها تنكيلاً وتعذيباً وصادروا منهم كل ما يملكون من ادوات المقاومة وقد جاءوا بجهاز غريب مفزع يطلق عـواء مشؤوماً يرشدهم الى مكان السلاح المدفون في قعر الانهـــار ، فالتقطوا بواسطته الفؤوس والبنادق وسواها ، ونصبوا مشنقتين شامختين فى ساحة البلدة قبل ان تبـدأ المحاكمات الصورية ، واعتلى هاتين المشنقتين ببسالة شابان من اطيب ابناء البـلدة خلقاً واعظمهم ثورية . لكم بكت الاعين ولكم اطلقت الحسرات . احداث مؤسفة تنغرز نبالها في حبات القلوب . اذ لسنا نقاوم عـــدواً غريباً يغزونا بخيله وبرجاله فنفخر ببسالتنا ، انما اناس من اخوتنا واهلينا ، ولكن قوى الظلم سخرت نصف الناس ليطعن النصف الآخر ويزهق روحـــه ويدك عظامه ثم يشمت بزهو وافتخار .

كنت قـــد اصطنعت عصا غليظة ادعاء بعرج مزعوم معتمراً منديلاً اخفي به معالم وجهي . اما الذي يسكن جواري فقد اقلقني ايما قلق ، اذ انني لم أتلف معه وليس ثمة احتمال فى مصاحبته ، فقد بـــدا نفوراً مرتاباً مظلم الاسارير ذا عينين كئيبتين معذبتين يشكو بهما فاجعة تجل عن الكلام ، ورغم انه لم يكن عجوزاً ولا اشيب الا ان وجهه القاتم يحفل بتجاعيد عميقة وكأنه شيخ قد أناف على السبعين .

كان يفصل بيني وبينه من الداخل نافـــذة مستطيلة تبلغ ذروتها المستديرة قريباً من السقف ، وهي نافذة مزعجة لاتفسير لسبب وجودها ، كنت قد اضفيت عليها ستارة سميكة مسدولة بطولها ومثبتة بالمسامير ، كما اضفى

عليها هو الآخر ستارة من ورق خشن يصطنع للف الحاجيات في الدكاكين غير ان الضوء كان يتسرب في وهج اصفر ينتشر على الستارة والورق معاً فيستطيع كلانا ان يعرف ان كان مصباح جاره مضاء ام مطفي ويستطيع ان يعرف ان كان نائماً ام مستيقظاً ، وان كان يعمل شيئاً ام مخلداً للراحة وحتى حفيف القماش وخشخشة الورق والتنفس في ساعات النوم ممكنة السماع.

كانت حريتي معلقة بقصبة هزيـــلة تؤرجحها الريح ، فان اكتشف أمري تناولتني السلطات اجفى تناول ، واذاقتني الوان العذاب وزجتني في غياهب السجن ، وقد فرض علي هـــذا الظرف العصيب الشاذ ان ابالغ في الحذر مبالغة تتجاوز احياناً ما يقتضيه الاحتياط والتدبر وهـــذا ما ملأ قلبي شكا من الرجل الذي يقيم الى جواري ، فقد رمقني غير مرة بنظرة فاحصة ثاقبة من عينيه غير المؤانستين في شبه لمحات خاطفة متلصصة وكأنه يزنني او يقيس طول ذراعي، قلت لنفسي لعله من اولئك الجواسيس اللذين تستخدمهم السلطات لتعقب الفارين ، وانني قد اقع في ورطة . وذات يوم عدت مبكراً الى غرفتي فلم يكن الجار قد عاد بعد ، فأزحت الستارة وتسلقت شبك النافذة حتى ذروتها ونقبت عن ثقب اختلس منه النظر فلم اعثر على ما اريد اذ كان قد سترها جميعاً بدقة متناهية ، فجرأت ومددت اصبعي محدثاً ثقباً صغيراً لا يزيد حجمه عن حجم الفلس ، وانعمت منه النظر . كانت غرفته صغيرة وفي غاية الاهمال ، يتوسطها سرير ضيق من تلك الاسرة التي يألفها المرء في فنادق الريف . يعلوه فراش خفيف مدعوك ، في جانبه القصي وسادة كبيرة مخسوفة في وسطها وكأنه يضع رأســه فوقها من غير حراك ، وكان ثمة دفتر على شيء

قائم مقام منضدة ، وبضعة كتب لم اتبين عناوينها ، وزجاجة صغيرة تحوي مادة يطلى بهـــا الوجه لكسب التجاعيد ، وتستخدم عادة في تمثيل ادوار الشيخوخة ، وقطع من ملابس مختلفة لاتلبس في مناسبة واحدة . ادركت ان الجار متنكر ، ولكن لأي سبب وما معنى التجعدات على الوجه وعلام هو هنا يبيع الباقلاء لصبيان الازقة ، أتلك هي حرفة يرتزق بها رجـــل يقرأ ويكتب ، فعدت الى مكاني افكـــر ملياً فى أمره، ثم انتهيت الى قرار لم اجد افضل منه ساعتئذ ، هو ان اتعجل بالرحيل قبل ان تطلع لي مشكلة جديدة ، فقمت الى الشارع باذلاً جهدي ان ابدو في تمام عرجي ومرضي كيما اتفحصه عن كثب وأدرس امائر وجهه لعلني أحدس سبب وجوده فى المدينة ، غير انني لم اصادفه ، فصرت اضرب في الازقة على غير هدى نافذاً من زقاق مدلجاً الى زقاق آخر ، حتى كلت قدماى وعدت في الليل فلقيته فى غرفته دون ان اتبين ما الذي يفعله ، ولحظت فى انشداه أنه قـــد أصلح الثقب في النافذة بعناية المحترس المبيت اموراً جسيمة وانه من غير شك قد اختلس النظر الى غرفتي ورأى الى اشيائي وبعض كتبي الملقاة على الارض . تيقنت ان وجودي هنا اضحى محفوفاً بالخطر وأن هذا الجار ان كان جاسوساً حقاً فقد اكتشف امري وتعين عليه منذ اليوم ان يواصل التحقيق عني في الخفاء ويجمع عناصر الاثبات لانزال ضربته القوية الساحقة ، فهبطت السلم على عجل وقصدت ربة البيت فلقيتها في غرفتها الصغيرة المحاذية الى الباب تنصت الى راديو يعمل بالبطارية فدنوت نحوها هامساً ـ انني اعتزم السفر صباح الغـــد واليك ، اجرتي ـ فأنفغر فمها دهشاً وسألت ـ هل انتما على اتفاق ولم تتبادلا التحية في يوم؟ ـ

قلت من تقصدين ؟ فاومأت الى غرفة الجار وقالت ـ انه الاخر دفع لي اجرتي ويعتزم السفر غداً الى مكان لم يشأ الافصاح عنه . قلت لنفسي ـ الملعون يريد ابلاغ السلطات واصطحاب نفر من الافراد السريين لاعتقالي ولكنني سأسافر في الفجر من غير عصا ولا تظاهر بالعرج .

امضيت ليلتي قلقاً اشد القلق منتظرا في اية دقيقة ان يقتحم غرفتي شاهراً مسدساً على النحو البوليسي المألوف مخاطباً اياي بجفاء وخشونة : هيا الى مركز البوليس ، كان يعطس في بعض الاحيان كمن يتعرض أنفه للغبار ويذرع الغرفة في خطوات متسارعة تؤذن بالانفعال ويزحزح بعض الاشياء عن مكانها . وهكذا مضت ساعات الليل حتى تألق ضوء الفجر اللؤلؤي في صباح الرابع عشر من تموز فهممت أن احمل حقيبتي واتجه نحو السلم واذا راديو ربة البيت يفاجأنا بالثورة الجبارة العارمة ، فانصت الى البيانات الاولى وموسيقى المارش ونبرات المذيع الرنانة الطلقة المبهجة . انها لحظات من العمر تضع حدوداً بين الاجيال ، تفصل الماضي عن الحاضر . الماضي التعس المظلم المغرق في الكآبة . ماضي الجواسيس وخونة الضمائر وارباب المكائد. واننا منذ اللحظة غدونا نستطلع الى المستقبل .

تسمرت في مكاني مذهولاً انصت الى اذاعة الجمهورية العراقية : بلادنا غدت جمهورية ، حلم الاحرار الطيبين . اولى الخطوات لتحرير البلاد ، القضاء على السلالة المقيتة المأجورة . هتفت ربة البيت في جذل ايها السيدان انصتا ملياً ان حكومة جديدة قد قامت في البلاد واردفت هتافها بتهليلة ثاقبة تجاوبت مع تهاليل اخرى من بيوت الجيران . يا الله ما اشد فرحي لقد ولدت

من جديد ، فان قضى الشعب فى بغداد على رؤوس الخيانة فأنني اؤدي واجبي تجاه هذا الجرذ الذي اعتكف فى غرفته حتى هـذه اللحظة ، وفجأة وعلى غير توقع البتة اصطفق الباب بعنف بالغ واندفع فوق السطح كالعاصفة . خرج يتهددني بقنينة طويلة العنق ، فشهرت عصاي في وجهه لاشج بها رأسه وكادت تقع معركة الا انه هتف في صوت عميق مدو ـ عاشت الجمهورية الموت للخونة والجواسيس ـ كان هتافه شارعياً كمن اعتاد ان يهتف في المظاهرات فيغرق صوته سائر الاصوات .

اي شيء هو هذا الرجل ؟ تطلعت اليه مشدوهاً فبدأ لي انه قد تغير بالمرة ، انه لم يعد هو نفسه ، مخلوق آخر جديد أراه اول مرة . لم يعدجاري المكتئب الصموت الباعث على الريبـــة والتوجس . انه مخلوق فرح قوى متفائل مليئاً بالعزيمة يكاد يطير من شدة ابتهاجه .

تقدمت الى (درابزون) الســـطح ملقياً بعصاي بشدة على الارض رافعاً صدري عالياً كما يفعل الديك قبل ان يطلق صيحته فى الفجر ـ عاشت الجمهورية الموت للخونة والجواسيس عاش نضال الاحرار عاشت الشعوب .

ثم اتجهت نحوه وانا اخرج شهقات متلاحقة دمعت لها عيناي فمددت يدي الى طولهما معتزماً ان احتضن الجار احكم احتضان ، فتصافحنا بحرارة وبقوة بل كاد احدنا ان يسحق اصابع الآخر في قبضته . صاح بي فى انفعال .

ـ انت ايضاً ؟ فأجبته

ـ اجل مثلك هارب من الظلم

ثم انطلقنا سوية الى الازقة وربة البيت تصفق لنا وتبتسم ومضينا

متشابكي الاذرع نخترق الازقة بين زغردات النسوة تهاليلن ، نعانق الناس والناس يعانقوننا ، لكم كان الشعب يحس بثقل العبودية، لكم كان يتألم ويشقى ، لكم كان صبره عظيماً متطاولاً ، ولكم كان حكيماً في كتم مشاعره انهقد ادخر طاقة كبرى لمثلهذا اليوم ، طاقة لايثلمشوكتها المستعمرونكافة.

وفي الليل جلسنا نتعشى سوية . اقترحت ان ارفع الستارة عن النافذة وان يرفع الورقمن الجانب الاخر . قبلان نبدأ بتناول الطعام فقبل الاقتراح بسرور بالغ وهو يستشعرالاسف لبقاء مثل هذه الحواجز بين الناسالطيبين . تمزق الورق بعنف ، وجذبت انا الستارة وطويتها ورفعنا النافذة وشرعناها فصارت تبدو الغرفتان وكأنهما غرفةواحدة ، ولم تستطع ربة البيت ان نقاوم ضحكاتها المرحة كلما تذكرت ان كلينا كان يحسب جاره جاسوساً يحذر وشايته وبسبب من هذا الحسبان كادت تخسر نزيلين صامتين هادئين وديعين لكم هي الحياة لطيفة باسمة فى جو الثقة والمحبة والصراحة .

يوم عسر

كانت الريح تتعاظم في كل ثانية ، باردة جليدية تلطم اجساد الناس المتخفي من الثياب بسبب الفقر بعنف متزايد . ان الميـــدان فسيح لها كما هو يفسح أمام الخيول المنطلقة في ساحة السباق ، وهـــذا الميدان هو حشد من البيوت الحصيرية المسقفة بالقصب فوق ارض وسخة رثة موحلة يغمرها الفيضان كل عام ويرمي اليها سادة المدينــة قاذوراتهم ومياه بلاليعهم . ارض مهجورة عفنة لم يغامر بهـــا أرباب الاملاك ودهاقنة المال والجشع بحجارتهم وحديدهم ، بل تركوها مربلة كبرى للادميين التعساء العبيد .

ان زئير الريح يعلو مثل عواء مشؤوم تطلقه اشداق آلاف الذئاب اضر بها الجوع وخسف بطونها . وراح القوم الحفاة المهلهلون باسمال داكنة غبراء والملوحة وجوههم بالشمس يتفحصون اعمـــدة بيوتهم خشية السقوط والانهيار .

وها هي جبرية قد حذت حـــذو الآخرين ، افزعتها الريح واهاجت سكينتها فاطلت برأسها من باب الكـــوخ ان كانت تلك الصفيحة المثقبة المنخورة من حطام الاسطبلات تصح أن تسمي بابا ، فصفعتها الريح واطارت

عصبتها وعصفت بخمارها الاسود ذى الدوائب الناعمة ، كما عبثت بثوبها فشدته من جانب حتى انتفخ كحب المـــاء وضغطته من جانب آخر فالتصق بجسدها الناعم النحيف ، فطرفت بعينيها مغمغمة ـ انه ليوم عسر ـ لم يعد كاسب وميعاد اوبته قـد تجاوز نحو ساعة من الزمن ، كانت وحدها في ذلك الكوخ تحيا مع زوجها حياة العرائس ، قالت لنفسها فيما هي تسوى اطراف ثوبها المتطاير ـ عل أمر آخر قد وقع ـ

كان ذلك الامر الذي وقع هو الاضراب الذي اعلنه عمال السيكاير الذي يعد كاسب فى عدادهم . كان اضراباً محكماً شهدته جبرية نفسها .اعتصم العمال بجدران المعمل واطلقوا من حناجرهم القوية صيحات الغضب والنقمة على اولئك الأسياد الذين يملكون المعمل ويجنون ارباحه ويسومون عماله الهوان والذل . وانتهى الاضراب كما ينتهي كل اضراب آخر ، باستدعاء حفنة من الشرطة المســـلحين تضرب نطاقاً حول المعمل وتسوق مدبري الاضراب الى السجن . واليوم ما عسى الامر يكون ، هذا الذي خطر لها فيما هي ترد الباب وتدلف الى قلب كوخها . تطلعت الى سريرها الكبير المصنوع من خشب الصناديق ولحافها القرمزي من قماش الموسلين ووسادتيها المدورتين المحشوتين بالريش زيادة في الراحة والتنعم ، تم هذا الشيء الاخير الذي لم يطلق عليه اسم مناسب بعد وقد تطور في بيوت الاغنياء فدعوه بمائدة التواليت . هذا أيضاً كان جديداً منقوشاً على واجهته صور الملائكة المجنحة وفرسان شاهري السيوف ونساء غامضات الهيئة . هـــذا كل شيء في اثاث الزوجين المتحابين الذين ينعمان بالاشهر الاولى من حياتهما الزوجية .

تقضت نصف ساعة والريح لما تبرح عنيفة جياشة ، ثم تهادت سحابة سوداء مدلهمة غطت جانباً كبيراً من السماء . شرعت تساقط قطراتها في وهن وكأنما لتمتحن متانة الارض قبل ان تصب عليها وابلا مدرارا .

تلفعت جبرية بعباءتها وانتعلت نعليها بقدمين مخضبتين بالحناء ثم احكمت باب كوخها وانطلقت في الطريق الموحل المنقوع بالمطر والمخدد بآلاف الحفر . كان بعض ارباب الاكواخ يعجنون الطين في ذلك المهب العظيم ويفرشونه فوق السطوح وشرع قسم آخر يوقد النار بقرص السرجين اليابس فغلت أباريق الشاي وبقبقت القدور بالكروش والمصارين . ان احتمال وقوع حرائق صغيرة متوقع فى مثل هذا اليوم العاصف ، فطالما أتت النار على كوخ هذا او ذاك من الناس فاحالته الى رماد . ثم تهادى القطار متعرجاً من الشرق ينفث دخانه ويلهث من التعب ، ومن ورائه عربات النفط سود وبيض . كان يطلق صفيراً حزيناً يوقظ في النفس حرقة الوداع ، كل هذا الذي يحمله نفطاً يضخونه من جوف الأرض ويملأون به سفناً تمخر به البحار ويتبقى السرجين لمالكي النفط واهله البائسين .

تسلقت جبرية الهضبة الترابية التي تفصل عالمها . عالم البؤس والجوع عن عالم القصور والرفاه والحدائق ، واذ مابلغت المعمل الشاهق الجدران لمحت وجوهاً تتطلع من النوافذ واخرى مشرئبة من الاعالي وثمة حلوقاً صدوحة الصوت تزار فى جلجلة من أعماق المعمل . كان كاسب قد تشبث باحدى النوافذ يستطلع الطريق ، فقد تفد جبرية في اية لحظة فتراه معتصماً فى المعمل يضطرب في غرفه ودهاليزه كما يشتهي فليس اليوم مراقباً ينهره ولا

سيداً يعنفه ، قد عطل الآلات كلها واخرسها من جيشانها الرتيب المدوي عاجلاً كل شيء حديداً هامداً لا يقوى حتى عن نفض الغبار عن جسده ، بل هو نفسه لم يكن يصدق ان الآلة الجبارة المنتزعة لطاقة آلاف الاذرع تجمد وتموت .

كان نفر من الشرطة يتوافدون مدججين بالسلاح وقد لاح العزم على جباههم . ان مشهد البنادق لمروع ولا سيما وهي محمولة بأيد مدربة خبيرة ، فارتاعت جبرية ولطمت خديها الاسمرين ، المنقطين بالوشم حتى صرخت واعولت ونادت زوجها في هلع ـ كاسب كاسب ما الذي تفعله هناك أن كوخنا ليبدو كئيباً من دونك تعال نعود سوية ـ فلوح لها بكفه أن تعود وحدها ، ولكنها لم تعد بل لوت ركبتيها قرب جدار ما وقرفصت على الارض شاخصة أبصارها في لهفة الى النافذة التي يطل منها وجه زوجها .

تضاعف اللغط وتجمهر أناس آخرون يرقبون باهتمام ماسيسفر عنه هذا المشهد الفريد . الشرطة طوقت المعمل ومنعت عن المضربين الماء والطعام ، ومضت ساعة اخرى فانقطع تهطال المطر والتمعت برك الماء وخفت وطأة الريح ، غير انها غدت أكثر برودة ، ثم انتصف الليل وخلا الطريق من المارة ، وما زال الزوجان يتحاضنان بالاعين ، فأخذت جبرية سنة من الكرى فغفت ، فتقدم اليها أحد الحراس وهزها من منكبها فأفاقت لحظات ومضى الحارس ثم غفت كرة اخرى ومشهد الشرطة ببنادقهم يلح في ذهنها راسماً صور الموت المرعبة . . وها هو الفجر الرطب قد انبلج ، جميلاً باسماً على ارض يشيع فيها التوتر والارهاب والرعب ، في جو مثل هذا يفرح مالكي المعمل

وأربابه اذ يعمل على تقويض معنويات المضربين واستسلامهم . أقبل معاون شرطة ضخم متين البناء مرسل الشاربين مدرباً خير تدريب على قهر الاضرابات. أقبل وهو برم متضجر من استمرار الاضراب كل هذا الوقت الطويل وهم فى اعتباره زمرة هزيلة متصعلكة ترسل طنيناً مزعجاً ! حذرهم بصرت حازم يليق برجل الامن الحامي لمصلحة الطغاة - ايها المضربون الهدامون الخارجون على القانون افتحوا الابواب وإلا اقلعناها وضربناكم كما تضرب الحمير - فأوقدت كلماته نار الغضب في صدور المضربين فرددوا صيحة مدوية - فليسقط الارهاب وليسقط الخونة والعملاء ، والموت لمصاصي الدماء أجيبوا مطاليبنا اجوراً أعلى وايقاف الفصل الكيفي - .

تجمهر عدد آخر من الناس فاضطرت الشرطة الى تفريقهم بعنف وردد المضربون هتافاتهم مرات ومرات ولوح بعضهم من سطوح المعمل شعارات كبيرة كتب عليها - الموت للحكومة المأجورة عميلة الاستعمار ، عاش نضال الشعب -

فضاق المعاون ذرعاً وفقد صبره وبدت عروقه تنتفخ بالدم فاوعز الى اتباعه الشرطة أن يقتلع باب الكبير فتقدمت اليه أكتاف متلازمة ومتلاحمة تزحزحه عن مكانه حتى ترنح وانكفأ عند اقدامهم في رنين اصم ، فتدافعوا الى الداخل كعصابة ضارية متمرسة بالاجرام والفتك ما خيل للمتجمهرين ان اشلاء المضربين قد تتناثر بعد دقائق ، فلطمت جبرية خديها واعولت فزعة مصعوقة ، ودام الانتظار الرهيب نحو نصف ساعة حتى انتهى الاضراب في تراجيدية مبكية ، فقد سيق المضربون في صف طويل من الجرحى والعرج والمعصوبي

الاعين قد استحالت اطمارهم الى خرق متدلية ممزقة يعلوها الطين والغبار والدماء والزيت كأسرى حرب ضاق بهم العدو أشد الضيق ، وغدت عينا جبرية تأخذان بالاتساع واجهشت في لوعة حين خرج آخر مضرب فهمس أحد المتجمهرين : أن ثمة قتيل واحد .

وقد صدق هذا الزعم حينما أقبلت سيارة الاسعاف البيضاء النافخة ببوق الموت المرعب وشقت طريقها حتى تسمرت عند باب المعمل . ان شيئاً عديم الشكل مهدل الاطراف مشجوج الرأس في حذاء واحد وجورب ممزق وجيوب مفتوحة الى الخارج ينقل الى السيارة ، ثم تبع هذا الشيء شرطي يبدو عليه الاعياء يؤرجح حذاء الميت بطرف سبابته والقى به في جوف السيارة . اعولت جبرية اعوال الرعب ولطمت خديها وسفحت الدموع ولكن لا من سامع ولا من مجيب .

هنا .... وهناك

كل عام وفي أوائل شهر تموز تتأهب اسرة محمود للسفر الى بيروت . في مثل هذا الوقت يكون السيد محمود قد ابرم عقوداً جديدة مربحة لاملاكه فى المدينة واستحلب من الفلاحين العاملين على ارضه بضع مئات من الدنانير وبذا يستشعر السعادة التي يتوق اليها ارباب الاعمال وأسياد الريف الغارقين فى الترف والنعمة والبحبوحة .

وفي بيروت تخلد الاسرة الى الاستمتاع والراحة فى مصائف المدينة العامرة الخضراء . ينشقون هواء الجبل المنعش ويكحلون انظارهم بمرأى البحر المتلاطم الهدار تمخر في عبابه السفن الضخمة ، ثم يعودون في آخر ايلول وربما في منتصف تشرين الاول حيث لاتبقى من حر الصيف باقية . يعودون بحقائب ملأى بالاقمشة والفساتين والشالات والاغطية والعطور والمناديل وبوجوه تطفح بالصحة والبشر واجساد نابضة مثقلة بالشحم .

كان رغدان يقوم على حراسة قصرهم المنيف . وهو قصر شاهق متسع الجنبات مؤثث بأفخم الرياش تطل شرفاته على حدائق البارك من الجانب الواحد وعلى عاصمة البائسين من الجانب الآخر . ورغدان من العاصمة نفسها . شاب وديع شهم قوى العضل ذو بشرة سمراء مسفوعة ، يتمتع بثقة السيد محمود ومحبته ولا يبخل عليه ببدلاته الموشكة على الاستهلاك .

في هذا العام اختلف الامر ، فمنذ نحو ثلاثة أشهر والمناقشات الحادة

تدور في ارجاء القصر والاحتجاجات تطبع وجوه افراد الاسرة جميعهم. فعلاء الابن الاكبر للسيد محمود المنهي دراسته الثانوية في هـذا الصيف قد أصر بشكل لم يسبق له مثيل ان تتخذ الاسرة سبيلها الى اوربا، قال في حـدة وقد شاع الدم في وجنتيه النسويتين «انا لسنا رهباناً لنقيم في اديرة بيروت، نأكل ونشرب ونحملق في البحر، أريد أوربا بلاد الملذات والفن» اما بلقيس الزوجة الجميلة المنعمة والتي تشكو ادواء خيالية فقد انضوت تحت راية العصيان واعلنت في صراحة انها تعتزم التماس العلاج على أيدي جراحي اوربا العظام. ويبـدو جلياً ان احتجاج الابن والزوجة ما كان له ان يتطور ويشتد لولا ان رب الاسرة قـد اغتصب اراض شاسعة من فلاحين صغار معدمين عجزوا عن ايفاء ديونهم.

وفي ذات مساء من امسية تموز شدت الاسرة رحالها مغربة بسيارة فخمة واسعة مبردة الهواء، وفي جيوب السيد محمود بطاقات سفر الاسـرة بالبحر على ظهر احدى السفن الراسية في ميناء بيروت. في صباح اليوم عج القصر بنشاط السيدة بلقيس وحماسها المفرط، فأحكمت قفل الابواب والخزانات والجوارير وغيبت حليها ومصوغاتها في حرز لا يدركه اللصوص وألقت على رغدان محاضرة حقيقية في اصول الحراسة ومراقبة الممرات واجتناب النوم الثقيل والانتباه في الليل والنهار، ولم تنس ان تطلب اليه رعاية الحديقة وسقي الاوراد النادرة وتنمية الشجيرات الصغيرة وتزويد كلب الاسرة المحبب بالماء والطعام وتفقد شؤونه واحواله، وامرته في تحذير ان ان يولي اهتماماً خاصاً بالسيارة المودعة في الكراج.

كانت سيدة حصيفة راجحة العقل تتصف بالجـد والمهابة والتسلط. وتقديراً لنباهة رغدان وشجاعته انعمت عليه باحدى بدلات زوجها. وكانت بذلة

مستهلكة واسعة الادران مسترخية الكتفين فضفاضة السروال، وزودته بحذاء من احذية علاء في الربع الاخير من عمره ووعدته بمكافأة حسنة ان احسن الحراسة وجنب القصر غزوات اللصوص .

في المساء انطلق رغدان الى بيت ابويه مجتازا القصور الفخمة ذات الحدائق والشرفات والاراجيح وانتهى الى الازقة الوسخة التي تقود الى منحدر السدة الترابية .

كان باعة الخضر والمرطبات يودعون عندها عجلاتهم اليدوية في مربض كبير يحرسه رجل يتقاضى عشرة فلوس عن كل ليلة . اذ لم يكن في وسع هؤلاء الباعة المتعبين دفع عجلاتهم فوق الهضبة الصعبة المرتقى فهاهنا يدفعون ضريبتهم المحتومة كل مساء ويمضون الى بيوتهم . واستشرف رغدان بعد دقائق على مئات الصرائف الداخنة المغبرة الكالحة الملزوزة . تنهض جميعاً بين مستنقعات بعوضية تأنف ان تلوغ بمائها الكلاب . هناك تنهض صريفة ابويه والى جوارها صريفة هنداسة الفتاة السمراء الفاتنة المرصودة لزواجه . كان فخوراً ببدلته وحذائه تائقاً لعرضهما على انظارها وابتسمت هي حال ان وقعت عيناها على الشاب المتباهي الرافل ببدلة ارباب القصور والكابس قدميه في الاحذية ، قال في حبور وهو يتأمل عنقها الموشوم وعينيها الكحيلتين وحنكها المستدق .

ـ هنداسة انني سأكون الليلة رب القصر من غير منازع وشريك وسوف أنام فوق البرج واشرف عليكم جميعاً ـ ثم أشار بكامل ذراعه الى الجدار الحجري العظيم الذي يغلف القصر من جهته الخلفية . فابتسمت هنداسة بحياء وبانت اسنانها الصغيرة البيضاء فحجبتها بكفها المنفرج الاصابع قالت متضاحكة

ـ ونحن ايضاً سنرفع انظارنا ونراك

واذ ما جلس الى أبويه بعض الوقت ، اعلن في جد وثقة ـ سأتزوج هنداسة حال ان تعود الاسرة من الاصطياف وقد وعدتني السيدة بمكافأة ان احسنت الحراسة وجنبت القصر غزوات اللصوص واعتزم اقامة مأدبة بالمناسبة استدعي أليها جوقة الطبالين والزمارين.

هز ابواه رأسيهما مؤيدين ما ذهب اليه ابنهما ، فرحين ببزته الجيدة القماش وحذائه الملمع اللذين يذكرانهما بالمعلمين والجباة .

ومع الظلام الدامس انقلب الى القصر وهو يتلمس طريقه بين الحفر والاخاديد وبرك المياه ولا تكاد هنداسة تبرح خياله لحظة واحدة ، فقد فتنته ابلغ فتنة . قال لنفسه انها «ستستيقظ في ساعات الليل وتشخص بأبصارها الى برج القصر فألوح لها بيدي وتلوح لي بيديها »كانت فكرة سخيفة من غير ريب ولكنها لاتخلو من دعاية ومسرة وان علاء نفسه كان يصطنع هـذا الضرب من العبث مع بنات الجيران فيلوح لهن ويبعث بقبل طائرة ويقذفهن برسائل مدعوكة .

كان القصر مظلماً والمصابيح مطفأة خلا مصباح واحد امرت السيدة ان يتضوأ فى المجاز طول الليل ، استنار به رغدان في طريقه الى السطح فخلع ملابسه على عجل وطواها الى جواره واضطجع بملابسه الداخلية محاولا ان يستجلب النوم الى عينيه الشاخصين نحو صريفة هنداسة ، غير انه لم ينم ، بل اشعل سيكارة وتلاها بأخرى ' وفي زعمه ان وهجها المتقد يسهل اكتشاف مكانه فوق السطح ، فكر رغدان انها قـد تخرج فى اية لحظة بعد تفرق شمل السمار والمجتمعين فى المقاهي . كان السرور يغمر قلبه وحلم الشباب اليانع الوردي المبتسم يفيض في جوانحه . انه اللحظات من اثرياء الناس وسراتهم

يقيم في قصر كقصور السلاطين يستشرف من عليائه على اكواخ المعدمين الجياع ، فانتصب بقامة مشدودة متينة وراح يتفرس فى باب صريفتها مسف النظر الى الاكوام المتداعية من الطين المتساقط

واقبل القطار فشق حجب الظلام كما يشقها البرق اللامع . يهدر هدير البحر ، قد انطلق من ساعته من محطة باب الشيخ سالكاً سبيله المحتوم الى كركوك . يتقدمه ضوء باهر يعشي العين وتنساب من ورائه عربات الدرجة الاولى والثانية المريحتان الفخمتان . ان اسياده المصطافين يستقلونها في اسفارهم . طقطقت عجلاته هنيهة فوق اخشاب الجسر ومضى مضي السهم .

ها ان هنداسة قد بانت من فرجة صريفتها تحمل مشكاة تسترشد بها في الظلمة . ان شيئاً مثل هذا قد رآه قبل اليوم . ثمة لوحة زيتية عالية الكلفة تضعها الاسرة في صدر الصالون ، تمثل صبية حسناء بيضاء البشرة صهباوية الشعر ملفلفة بجلباب النوم تطل من شرفة وفي يدها مصباح تهتدي به الى حبيبها .

غمغم رغدان في لهفة ـ هنداسة ها انني اقف هنا ـ وراح يلوح لها في غير امهال، واذ ما اطمأن الى انها رأته ، رفعت المشكاة بذراعها الصغيرة ولوحت بها ، مشبهة ملاحاً يرشد سفينة ضالة الى الميناء .

في الليالي المقمرة لا تعمد حبيبته الى مشكاتها فيكون في ميسوره ان يتبين فستانها وقسمات وجهها كلما انسكب عليها الضوء الواهن المتعب من قمر اشهر الصيف الشفاف المنور .

بعض السرقات تقع فى القصور المجاورة رغم حيطة الحراس وسهر الشرطة . يصطنع اللصوص شتى الاساليب لاقتحام الابواب المقفلة وخلع الشبابيك من اطاراتها والتسلل من الاسوار والحدائق. كانوا يتخيرون ضحاياهم

في رابعة النهار ويسرقونهم في الليل . ان قصراً منيفاً كقصر السيد محمود الحافل بالنفائس والرياش يحرسه عاشق مخبول يتغازل من السطوح ليس ذلك بخاف على اولئك المتصدين المهرة .

مضى شهر وشهران ورغدان منشرح الصدر فرحاً بلعبة لم تخلق له . ومضت الايام العشر الاولى من ايلول وغدا موعد اوبة الاسرة وشيكا

كان يعتزم الزواج من هنداسة حال ان تمنحه السيدة مكافأته ، فقد ابتاع سريراً من خشب الجوز انيقاً لامعاً لن يحوزه سواء من اهله وقومه وابتاع كذلك منضدة ذات جوارير مبوبة بالزجاج تثير الاعجاب .

وكانت الليلة الاخيرة، ليلة مدلهمة ممعنة في الاظلام . ارتدت السماء جلابيب سوداء طمست معالم الدنيا كلها فلم يعد لعيني رغدان شيء يمكن ان ترياه وتميزاه ، تمتم مع نفسه « ستطلع لي مع مشكاتها » كان الوقت مبكراً غير ان الشمس قد غربت منذ وقت طويل ، وكان القوم يسمرون عند فسحات صرائفهم وافواج الباعة يودعون عجلاتهم اليدوية ويمضون عبر السدة، يختلط مع صفوفهم الكسبة الحرفيون وعدد من الجنود والشرطة . فجرب رغدان ان ينام على نسمات ليل ايلول العليلة ، وقد غفا وفي جفنيه احلام ماتعة ،احلام المزمار والطبل ومأدبة العرس واطلاق التهاليل ودوى الرصاص وهنداسة الى جانبه . وفي هذه الغمرات الحالمة تناهى الى اذنيه صدى صرخة ، فتململ في مضجعه وزفر في تضايق فتناهى بعدها الى اذنيه هرج واستغاثة فأفاق رغدان على مرأى لهيب مندلع من صريفة هنداسة نفسها . كانت المسكينة تحمل مشكاتها فعثرت بالوصيد فأندلق النفط على حصير الصريفة وتأججت النار. رفع رغدان جذعه في رعب فرأي نفراً من الناس بينهم ابوه وامه يحملون صفائح ملأى بالماء يسكبونها على اللهب العنيد المتراقص . كل هذا لن

يجدي نفعاً ، كان يعلم جميعهم ان شبت النار في مكان أكلته وأكلت جواره . بقية من عقل دلت رغدان الى السلم بدل ان يلقي بنفسه من البرج الشاهق الى عرض الطريق . هبط في سرعة جنونية صافقاً من ورائه الابواب في عنف مهرولاً عبر الازقة . وقبل ان يصل ، كانت النار قد اشبعت جوعها ونهمها . بأشياء هنداسة واشيائه واحالت الصريفتين الى رماد داخن .

وفي القصر تسلل اللصوص الى اشياء السيدة ذاتها ونهبوها في اطمئنان ، ومع الفجر عادت الاسرة من الاصطياف ، عادت مثلها في كل مرة بحقائب ملأى بالشالات والاقمشة والمعاطف وبوجوه تطفح بالصحة والبشر . فعربدت السيدة واهتاجت حال ان بلغت بسرقة القصر ، غير انها لم تذرف دمعة واحدة ، وشهد افراد الاسرة جميعهم مخدومهم رغدان وهو يقاد مكبل اليدين الى الموقف .

لقـــــــاء

معظم المعارك الطفيفة التي يضطر طارق الى خـوض معمعانها تنشأ بسبب امه ،فهو في الحق رقيق الحاشيـة ذكي العينين حاد المزاج لا يرتاح الى الاهانة ولا يتقبلها وله اساوبه الظريف في الانتقام من اولئك الذين يتحدونه ويلمزون امه جهاراً .

كان قد بلغ الرابعة عشر من العمر، يكسب رزقه بخدمة هذا او ذاك من الناس بعد ان ترك المدرسة عقب ان لفظته امه وهربت مع عشيقها . وقد حدث هذا منذ اربع سنوات، اي بعد وفاة أبيه بنحو عشرة اشهر، وانه ليذكر امه. امرأة مليحة القسمات طرية العود يغطي وجهها الابيض نمش ناعم متبرجـة تبالغ في التزين تضع في اذنيها اقراطاً من ذهب .

اما المعارك الطفيفة التي كان مضطراً الى خوضها بـين اونـة واخرى فهي بسبب اصرار خصوصه على تذكيره بامه السالكة سبيل الغواية . فقد قيل انها ضجرت عشيقها وبرمت بعشرته ولم تعد تحتمل خشونته وسطوه على مـا تملك فهربت منه وغدت امرأة متحررة تحيا لنفسها من غير رقيب ولا حسيب .

ولم تكن في ذهن طارق ايما فكرة عن حقيقة النسوة اللواتي يعملن عمل امه، فكل مايفهمه، ان ثمة نساء يتهادين فى الشوارع يلبسن فاخر الثياب ويضعن الكحل ويتزوقن بالذهب فيحوم حولهن الرجال ويكسبن اموالاً كثيرة .

كان مخدومه يدير حانوتاً للطعام في احد المعسكرات فينهمك طارق سحابة النهار وطرفاً من الليل فى تهيأة المحشيات والبطاطا المعجونة بالسمن والباذنجان المقلي بالزيت، عاملاً فى جهد بالغ تحت أمرة مخدومه وزوجته العادمة لكل زينة والمسربلة بالخرق الوسخة والمتمخطة باصابعها، ولم يكن كلاهما يرى فيه غير ذراعين نشيطين يعملان في غير ما ملل، ولم يتردد اي منهما ان يلمزه دون حياء كلما تواني ان يغسل صحناً او يحمل دلوا او يرفع الصحاف الرقيقة عن المقلاة، ويقترا عليه في الأجر ويشاكسانه علانية.

وذات يوم نفذ صبر طارق فوطد العزم ان ينتقم من مخدومه انتقاما يليق بكرشة السمين الحافل وعجيزته الناهضة، فتغفله من وراء ظهره ورفسه ببوز حذائه العتيق اقصى ما يستطيع ان يرفس، فارتمى الى الامام منبطحاً على الارض صادماً أنفه بقبضة الفأس المدببة جعلت الدم يسيل منه وتأذت اسنانه وذقنه، واذ ماهم طارق ان يطلق ساقيه للريح، لحقت به زوجة مخدومه شاهرة حجارة من احجار القدر ثقيلة كبيرة قمينة بتفتيت رأس ثور، الا ان الحجارة اصابت مصراع الباب دون ان تصيب طارق باذى، وفى المساء القى القبض على طارق بمعونة مخدومه وزوجته اللذين ذكرا كل ما يلزم لارشاد البوليس الى مكمنه فوضعت في يديه الاصفاد وسيق الى المركز مخفوراً برجلين مسلحين، فأدرك طارق ان عهد المعارك الطفيفة قد انقضى وانه منذ اليوم صار يخوض معارك حقيقية تستوجب استدعاء الشرطة ووضع الاصفاد باليدين.

كان المركز كبيراً حديث البناء ذا قاعة مبلطة بالكاشي تقوم على جانبيها عدة غرف كبيرة غير مجللة بالستائر، قد اتخذ بالاضافة الى مركز محلي مكتباً لرئيس الشرطة المسؤول عن النصف الثاني من أمن المدينة. اقتاد الشرطيان طارق الى المفوض الخفر لتدوين اسمه وحرفته وعمره كما

هو جار في المراكز، يقتفي أثره مخدومه وزوجته اللذان بالغا بشكل ظاهر في الشكوى مماحدا بالمفوض ان يسدد لطمتين تأديبيتين الى وجهه، ثم اقتيد الى الموقف ، إلا انه دهش دهشة بالغة فيما هو يتخذ سبيله الى غرفة التوقيف فقد تناهى الى سمعه وشوشة نسائية كالتي يسمعها الناس في الحمامات العامة، كانت تنبعث من غرفة تقابل المفوض ، واذ ما تلفت طارق نحو مصدر الصوت لقي حشداً من النساء مضطربات الشعر قد تشبثن بحديد النوافذ وليس فى معيتهن ايما رجل . كن حاسرات الرؤوس مصبغات الوجه على محياهن سيما الفظاظة والعهر .

اقتيد طارق الى الموقف حيث يقع في ادنى الحديقة ، وهو عبارة عن مسقف مستطيل ذي نافذة مقضبة واحـــدة وباب مشبك كبير . وكان ثمة صبيين مجلببين في مثل عمره يدخنان السكائر ويرسلان سباباً متلاحقاً لكل من يخطر على بالهما ، وكان الى ذلك رجل آخر ، وسخ ملتح تبدو عليه سيماء العته ، قد تزمل بقباء سميك يشده الى وسطه حزام من الجـــلد ذو ابزيمين نحاسيين كأحزمة الجزارين . ان ذلك القباء فيما يبدو هو الشيء الوحيد الذي يرتديه الرجل . استشعر طارق أشد الضيق من مزاملة هـذا الرهط المريب الباعث على القرف ، فساوره جزع بالغ من ان يتألبوا عليه وينوشوه بأذى . كان طارق قــد رأى الى شاكلة هؤلاء الموقوفين يذرعون الازقة ويتربصون في العتمة ويقامرون بالورق والنرد ويستحمون فى امسية الصيف القائظة على شاطىء النهر .

سرعان ما لمس هؤلاء نفوره منهم فبادلوه بنفور مثله، غير انهم حملوه مكرهاً على ان يرد على اسألتهم: عن هويته وعن سبب توقيفه واذ ما أشبعوا فضولهم من حكايته التي بدت في اعينهم لعبة طفلية سخيفة لا يثير في نفوسهم اي قدر من

التشويق ، دنا نحوه الرجل الملتحي داساً قبضتيه في بعض جيوبه هازاً رأسه في تباه وغرور متشدقاً بنـــيرة مخنخنة فيما احاط به الصبيان من جانبيه هازئين ساخرين .

ـ ان امك لم ترضعك كفاية من الحليب كي تخرجك رجلا كاملاً ... اذن كيف يصح لك ان ترفس الناس في اقفيتهم وتلوذ بالفرار ثم يقبض عليك في بيتك كما يقبض على الدجاجة الحمقاء في قعر التنور وتساق الى المركز فيصلح لك المأمور بعض اسنانك العوجاء بلكمتين كانتا لائقتين ببوزك المدبب ، اما نحن أيها الشقي الجبان فقد اتينا الى هذا المكان من تلقاء انفسنا بغير اصفاد ولا اهانة ولا اصلاح اسنان عوجاء ، انما تقدير وتحيات عند الباب ... واننا في الحقيقة في الفندق العام التي تديره الحكومة الموقرة وتشرف عليه لراحة ابنائها الابطال اللذين يشكون من قرصات الجوع وقلة الراحة ... وهكذا تستطيع ان تنـــام ايها القنفذ الصغير ولا تثير لغطاً ولا ثرثرة ولا تلجأنا الى رؤية وجهك مرة اخرى .

وجيء بالعشاء فكان كباباً مفلفلاً مع رغيف واحد من الخبز وكمية من الكرفس فاصاب كل حصته وتناولها بنهم ظاهر وتلمظ بصوت مسموع بينا أنتحى طارق في الزاوية مستديراً بظهره نحو البـاب وراح يقضم عشاءه في صمت ومســـكنة .

كان الثلاثة على علم اكيد بوجود النساء في الموقف الآخر ، وهن رهط من البغايا بالغات الدرك الادنى في سلم الحرفة التقطهن الشرطة من الارصفة المعتمة ، فيماكن يترصدن الرجال ويطارحهون الحديث ويـثرن الشبهات . كان لغطاً خفيضاً يدور على السنة الموقوفين وقد بدوا جميعاً مترقبين لأمر ماقد يقع وقد لا يقع ، ولكن المسألة كلها تتوقف على نشوب حريق او وقوع جريمة

مروعة او سطو عصابة من اللصوص على البيوت الآمنة . ان احداثاً من هـذا الضرب كفيلة باحضار الرئيس من بيتـه فيلازم مكتبه المجاور لغرفـة توقيف النساء وانه عندئذ سيـــضجر من لغوهن وثرثرتهن فيامر بنقلهن الى موقف الرجال . كان الفرح يطغي على نفوسهم طغيان ضربات الطبول على حشـد من الزنوج . اما طارق فقد خلف جانباً من غير مشاركة ولا الفة ، منسيا تمـام النسيان دافناً رأسه بين ركبتيه مستسلماً لاغفاثةهادئة ،واذ ما الح عليه سلطان الكرى تراخت ذراعاه واغتمضت عيناه وراح يحلم في حياتـه الماضيـة كلها منذ ايام والده ، حيث كان يضعه في حضنه عندما يتناول طعامه ويلبسه بدلة عسكرية كبدلة الضباط مزينة بالازرار النحاسية وكوكبة فوق كل كـتف، وذات يوم لازم الفراش ولم يخرج الى عمله عدة اسابيع فكان يعوده بعـض اصدقائه ويجلسون الى جواره ويتناولون واياه حديثاً صغيراً متقطعاً حتى رأى الى أمه ذات مرة وهي تتلفع بعباءتها وتخرج الى الطريق ، ثم عادت بعـــد نصف ساعة مع رجل مهندم انيق البزة يضع عوينات ويحمل حقيبة صغـيرة فقيل له انه الدكتور جاء ليشفي اباك من مرضه ، ففحص اباه وهـو مستلق عارياً فوق الفراش ، وبدأ لطارق اشبه بعظام مخيطة الى بعضها من فرط هزاله وضعفه، فاخذه الأسف والاسى على ابيه . وجاءت والدته بالدواء فصار يشربه بامتعاض وعبوس ، وحينما اعولت في احد ألامسيات علم ان اباه قـد مات . يذكر النعش والتابوت والمشيعين القـــلائل ،ثم صارت اثاث البيت تختفي قطعة اثر قطعة ولم تعد لهم حاجة حتى بالبيت نفسه فانتقلوا الى غرفة في مكان ما ، ولم يدر طارق علام صارت امه تضجر منه وتريد ان تبعده عنها ، لعله أخذ يتساءل عن سبب وجود رجل غريب معها، فدفعته الى مدرسة داخلية ونست ان تدفع عنه اجرة الايواء والدراسة فاخرج من المدرسة وضـاع في

زحمة الناس لايدري لامه مكاناً ولا شأناً ،

هوم الموقوفون الثلاثة في ضجر ونفـاذ صبر متطلعين تطلعاً موصولاً عبر النافذة كمن ينتظر معجزة ، وقـد وقعت المعجزة فعلاً اذ اقبل رئيس الشرطة على عجل فأشاع الرهبة والخوف في كل نفس حية ، فاتجه نحو مكتبه وما كاد يبلغه حتى امر بنقل النساء الى موقف الرجال ليخلو له سبيل العمل والتفكير . فقد قيل ان رجلاً ما قد قتل ، وفر الجناة بسيارة

اقبلت اربع نساء عبر الحديقة ضاجات بالشكوى والتـذمر من سوء معاملتهن وعدم السماح لهن باطلاق سراحهن . كان يقودهن شرطي واحـد مسلح وما كاد يفتح لهن الباب حتى هدر في وجوههن متوعداً .

ـ كل يلزم مكانه كما يلزم المسمار مكانه في الحائط . من يثر منكم جميعاً أي شغب أو منازعة سحقت له عظامه ، وقد يظن احدكم انها فرصة للعبث او خروج لصيد ابن آوى فيلهو كما يحلو له ، انها ستكون عليه وبالاً اسود .

تظاهر جميعهم بالطاعة والامتثال حتى المعتوه الملتحي انتحى جانباً وراح يرنو بلا مبالاة تامـة وكأن الامر كله لايعني شيئاً بالنسبة اليه ،ثم اردف الشرطي .

ـ النساء الى اليمين والرجال الى اليسار . . . وهكذا حتى تطلع عليكم شمس الغد

ثم ابتعد بعد لحظات وسمع بجلاء صرير حذائه الثقيل وهويتلاشى.

هتف المعتوه في انشراح « انه قـد ذهب فليختار كل منكم صاحبته ويكون الى جانبها ولكن من غير ان يمسها وإلا كانت فضيحة »

زحف المعتوه بتؤدة واحتراس نحو امرأة بدينة كثة الشعر حولاء في

عينها الواحدة فرمقته هـــذه بنظرة مستقرئة ، مأخوذة برثاثة قبائه الوسخ ووجهه الملتحي البائس فابتسم لها وارتاحت له .

أما الصبيان فتخير كل منهما صاحبته ولازمها ، وهما امرأتان هزيلتان ممسوحتا الصدر . وتخلفت الرابعة في زاويتها غير مبالية ادنى مبالاة بالوضع الذي انتهى اليه التوزيع ، بل اخرجت سيكارة وشرعت تدخن . كانت في نحو الاربعين من العمر تبـــدو مخمورة بكمية صغيرة من العرق أوقع في رأسها الدوار ، اومأ اليها المعتوه .

ـ هناك اذهبي اليه

فهزت رأسها رافعة سيكارتها المتشبثة بأطراف اناملها ، ففهم المعتوه انها ستفعل ذلك بعـد الانتهاء من التدخين . اما حادثة القتل التي خدمتهم وسهلت لهم هذا اللقاء ، فقد وردت الانباء عن طريق العبارات المستعجلة التي يتفوه بها الشرطة الذاهبون ألا يبون في الممرات . ان سيارة اسعاف قـــد استدعيت وفتشت جيوب القتيل للعثور على أوراق تثبت شخصيته وان جثته قد نقلت الى المستشفى ، احس طارق ان ثمة يداً تمس كتفه وتهزه برفق وسمع صوتاً ناعماً يهمس في اذنه .

ـ هيا اقعد كفاك نوماً

استدار طارق متطلعاً الى وجه المرأة ، ثم ما لبث ان اخذه الدهش وعراه الارتجاف . كانت امرأة مليحة القسمات يابسة العود يغطي وجهها الابيض نمش ناعم وفي اذنيها اقراط من البرونز . كانت امه هو .

حامي الاسياد

كنت في وقت ما موظفاً فى احدى المصالح،وكان الطريق الذي يوصل بين بيتي وتلك المصلحة يستغرق نحو نصف ساعة اعتدت ان اقطعها مشياً على الاقدام . وقد حدث لي كما يمكن ان يحدث لكل انسان يترك منزله كل صباح في ساعة معينة ان يلتقي بلا انقطاع بوجوه معينة يصادفها على الطريق . واستطيع ان اذكر هنا خمسة او ستة وجوه انطبعت فى ذاكرتي انطباع النقش على حجر صلد ٠

فثمة فتاة فى نحو الخامسة عشرة من عمرها تميل الى القصر باسمة الوجه ضاحكة العينين يبدو عليها حياء مفرط ، فى يدها حزمة صغيرة من الكتب والدفاتر وعلبة من الالمنيوم تحشو فيها اقلامها ومبراتها ، وفي موضع آخر ألتقي بأحد اصدقائي القدماء فنتبادل التحية في حرارة وابتسام ثم اصادف قرب الكنيسة موظفاً اشيب بادى الاعياء يزحف نحو دائرته ومن جانب فرعي من الشارع يطالعني وجه سيدة محتشمة مصبوغة الوجه تتجه نحو مخزن اوروزدي باك .

والوجه المثير الذي لفت نظري كثيراً وجعلني احوطه بعيني احاطة دقيقة ، هو شرطي بسيط بلا رتبة كان يقف على رصيف الشارع العام وقفة صارمة فخورة كأحد الجنرالات الالمان يستعرض كتائبه من الباصات والسيارات وجموع السابلة . يتدلى من خاصرته اليسرى مسدسه الاسود الكبير محفوظاً

في علبة جلدية لامعة . وهو الى جانب نظرته وتعاليه ، فارع العود الى درجة ملحوظة متين البناء عريض الصـــدر ضاري النظرات كنموذج ممتاز لرجل الامن الذيكانت تستخدمه السلطات البائدة في قهر الشعب .

كنت انظر اليه واتمثل قامته المشدودة ويديه الضخمتين الحجريتين فيخيل لي انه على أتم استعداد للفتك بأي انسان تسول له نفسه افساد هـذا النظام (البديع) الذي يسود الشارع في الصباح .

تمر به السيارات الفارهة ذوات الرقم الصغير ببطء وتناقل علىشكل سلسلة لاينقطع لهـا معين ، وكان ذلك الشرطي في اتم وعيه لازجاء التحيات لالئك المنعمين ،فكلماارتفعت ذراعه الى صدغهودق الارض بكعب حذائه ،كانت هناك سيارة فخمة لامعة يستقلها رجل حسن البزة لامع الوجه تبدو عليهمظاهر الطغيان والتسلط . ولم اكن ادري هل ان هذاالشرطي يعرف رجاله معرفة يقينية ام انه يأخـذ بالمظاهر البراقة فيؤدي تحياته على هذا الاعتبار . تولدت في نفسي رغبة لاتقهر في تقصي حركاتهـذا الشرطي وسكناته ،حتى انني سمعت صوته ذات يوم . كان قـد اقترب من شرطي آخر قصير بدين علىذراعه خيطان ، سأله «أتدري لمنالسيارة التيتحمل رقم» ... كان صوته اجش مفعماً بالرجولة ، فأجابه الشرطي الاخر« انهـا سيارة معالي الوزير فحذار ياعلوان من اداء التحية انه لايريدها ابداً .»

وقد عجبت ان اجد ذلك الشرطي الشامخ يتغضن جبينه ويغفر فاه ندماً على هفوته التافهة،فقد كان يؤدي التحيةلصاحب المعاليذاك وهولايدري اية مخالفات يجترح .

وجاء زمن قامت فيه المظاهرات وماج الشـارع بالهاتفين الغاضبين وتصاعدت من حناجرهم القوية الصرخات المدويةالمجلجلة ، فاسقطوا من

اسقطوا واعاشوا من اعاشوا ،فاستخدم ذلك الشرطي لتشتيت المتظاهرين وقمعهم ،فلقيته ذات مرة في حومة المعركة معتمراً خـوذة فولاذية ومتسلحاً بهراوة ثقيلة من خشب التـوت قمينة بتفتيت رأس ثور ، وراح يبطش بها بضراوة وهستيريا ،فصمد له المتظاهرون وشقـوا طريقهم في عزم واصرار تتأرجح فوق رؤوسهم شعاراتهم الحبيبة وقد كتبت على عجل «الا ليسقط الخائن ـ الموت للاستعمار ولمجوعي الشعب» كلمات مطبوعة على السنة الاحرار في كل مكان ،ولكنها في معسكر الاسياد اولئك الماسكين بالسوط والجالسين على كراسي الحكم المبطنة بالمخمل تجعلهم يفقدون أعصابهم ،كما فقدها من قبل نظائر لهم واشباه .

واخيراً قهر المتظاهرون. قهرهم النار والحديد، وقهرهم كذلك ذلك الشرطي الشامخ ، واعلنت في المساء الاحكام العرفية وتشكيل محاكم التفتيش وسيق الاحرار من منازلهم الى السجون وانهالت عليهم تهم باطلة مضحكة، ونصبت على اثرها المشانق ،وعاد ذلك الشرطي من جديد يحتل الشارع بنظراته وتباهيه وقد وضع على ذراعه شارة الرتبة التي منح اياها .

كنت أتامله في الصباح مزهوا متباهياً يوالي تحياته الحارة بهمة منقطعة النظير حادجاً المارين بغير اكتراث . في ايام الشتاء المكفهرة وبرودة الصباح قد عصفت بالوجوه والابدان ، يقف في جلد وصلابة يحيي الرجال المترهلين السعداء الناهبين خبز الجياع واراضيهم وكرامتهم ، وفي حر الصيف اللافح يقف في مكانه أيضاً متحمـلاً القيـظ المهلك كحمارة الحطاب ، فاقول في دخيلة نفسي : ترى الا يشعر هـذا العملاق انه حارس لكل هؤلاء ،هم في دواوينهم ومزارعهم ومآدبهم . وطغيانهم متراخون على الارائك ومنغمسون في

الملذات وهو ها هنا في عرض الشارع يحميهم ويذود عنهم الاذى ويواجه تيار الهاتفين الغاضبين بهراوته العتيدة شاجاً الرؤوس ومحطما الاذرع .

صرت بمرور الايام احسب ان هذا الشرطي جدار فولاذي يقف مانعاً في سبيل تحرير شعب بأكمله ونوال حقوقه ويقف مانعاً أيضاً فى سبيل تحقيق اية عدالة ممكنة ، فاتساءل:الا يشعر بمايصنع ،الا يدركالموضع الذي وضعه فيه الاسياد ،بل الا يفهم انه مسخر لضرب وقتل اناس ليس فيالدنيا من هم اقرب اليه صلة وادنى رحماً .

دارت الايام دورة كبيرة ،فتحولت من عمل الىعمل وتغيرت ظروفي وانقطعت عن المرور في ذلك الشارع ولم اعـــد ارى ذلك الشرطي مطلقاً وكدت انساه وانسى كل الذي فكرت فيه في ذلك الحين ، وبعد مرور اربع سنوات كنت ازور صديقاً فيالسجن . كان ضحى يوم حار قائظ وباحةالسجن مكتظة بالرجال والنساء والاطفال مع باعة اللبن والمرطباتالرخيصة الوسخة وقد جلس الزائرون على الارض مع أقربائهم وأصدقائهم المساجين على شكل حلقات متراصة في ظل شجرة كاليبتوس فارعة ضخمة ، وكثير منهم جلسوا تحت وقدة الشمس المحرقة . فلمحت فيمن لمحت فى تلك الساعة صاحـــبي الشرطى .كانت عليه بذلة السجن الخشنة ،قدجلسالى امراة اعرابية بائسة وحولها ثلاثة اطفال بجلابيب فقط وامام الجميع سلة فيها ـ ركية ـ واحـدة وعنب وصمون وتمر وقدر صغير فيه طعام بارد . فاخذتنيالدهشة لحاله ولحال العائلة كلها ،فنازعتني نفسي ان اسألهعن سبب عن دخوله السجن ،تطلعت الى وجهه ملياً فلم اعثر على اثرلتلك العنجهية المقيتة وذلكالاعتدادالفارغ، انمـا هو الساعة الانسان الحقيقي المعدم البائس المتجرع الآم طبقتهوثقلها الباهظ، قد ارتد الى مكانه الصحيح كما يرتد المطاط المشدودالمتوتر.

اقتربت نحوه والقيت عليه السلام فهش في وجهي،قلت له بلهجة رقيقة
ـ انااعرفك ، كنت شرطياً تقف في الشارع العام امامالجسر ماذا فعلت ؟
اجاب مستغرباً ـ حقاً كيف هذا ،انني لم ارك ؟
قلت ـ انك لم ترني ولكنني كنت ارقبك باهتمام . كنت شرطياً بلا رتبة فاشتركت في قمع المظاهرات فابليت أشد البلاء وانعم عليك بخيط .
هتف بأسى ـ آه يا عزيزي المظاهرات ، انها حطمتني ودفعت بي الى السجن .
فسألته مدهوشاً ـ كيف يمكن ان تحطمك المظاهرات وطالما حطمتها بهراوتك المفزعة .
وطفق يروي حكايته . قال :
كنت أقوم بعمل المناوبة في الشارع وكانت أياماً حالكة سوداً ما نكاد نفرغ من تفريق مظاهرة حتى تنفجر اخرى والدنيا في هرج ومرج والشرطة في كر وفر كأنمانحن فيمعركة حقيقيةلاريب فيها ، فاعتمرت خوذتي وتسلحت بهراوتي .
فصحت في سرور ومداعبة ـ ويالها من هراوة .
فعقب في اسى ـ نعم ضربة واحدة تجهز على الخصم .
واسترسل يقول ـ خرجت الى الشارع فتلقيت الاحجار تنهال فوق رأسي والهتافاتتصم الاذان ،فجاءتمفرزة من الشرطة مدججة بالبنادق فاطلقت عياراتها في الفضاء مهددة فلم يجد ذلك نفعاً ، فاصابتني حجارة كبيرة في كتفي فتاوهت بالم واستدرت نحو المتظاهرين وقد فقدت اعصابي وغدوت وحشاً ضارياً ،فرفعت الهراوةوانزلتها باول رأس لقيته امامي . لم اتبين شكله ومعارف وجهه ، انما اتذكر انه كان قد دس ذراعه في جيب بنطلونه وابتسم

لي في هزوء ،وسخرية اتدري من كان ؟ كان ابن ذوات

قلت ـ يعني ابن اولئك الذين كنت تحييهم في الصباح .

ـ اجل انه ابن احدهم ، وقد انتهت المظاهرات وانعم علي بخيط اخر غير انني فوجئت ذات يوم بتوجيه تهمة لي ،هي تهمة الاعتداء على حياة ابن الذوات المزعوم .

فأحتجزت في الموقف وابتدأت محاكمتي .

سألته في دهشة ـ ولكن ايها العزيز تحياتك واستعداداتك الصباحية وهراوتك العتيدة التي ابليت فيها شر البلاء ،الم يبادر شيء من هذا لنجدتك .

اجاب في قنوط ـ لاشيء بادر الى نجدتي .

سألته ـ ماذا كنت ترجو ايام تبخترك في الشارع وشج رؤوس المتظاهرين بالهراوة ؟

أجاب في أسف ـ كنت ارجو الترقية ، منحوني خيطاً وطمعت بخيط آخر ، ولكنهم ادخلوني السجن بدل ذلك .

سألته أخيراً ـ من كان على حق ، المتظاهرون ام اسيادك الخونة .

اجاب في ندم ـ كنت مغفلاً كبيراً بل اعمى ، لا افهم حتى مشاعر الناس الذين يتظاهرون من اجل سعادتي .

وتركته منصرفاً الى صديقي السجين .

خاســـرة

كانت الشمس ترسل شواظهـا اللاهب من نقطة سمت الرأس ،انها شمس تموز التي لاترحم قد اسخنت الملايين من ذرات الغبار وجعلتها متأهبة في اية لحظة للانطلاق في الفضاء في عجاجة رمادية محرقة تهيج خياشم الناس وتوسخ ارديتهم ،وما اكثر ما كان يحلو لسائقي السيارات ان يكبسوا وقودهـا ليثيروا من ورائهم سحائب الغبار ، تتلقفه الريح فى نهم وتذروه في كل ناحية واتجاه .الغبار والشمس والريح ونهار تموز لم تمنع جميعها افواجاً من الرواد عقدوا العزم على القيام بزورة نهارية لذلك المكان العجيب الموبوء . تكردح على الطريق زرافات الرجال محمرة الاعين قرمزية الوجوه منفوشة الشعر تجر اقدامها في كسل ووهن،تشرأب باعناقها الى مداخل البيوت.رغم ان جميعهم على يقين ان عدد البغايا لم يزد واحدة عن ليلة امس وليس بينهن اي وجه جديد . وتكردح كذلك ثلاثة من لاعبي القمار . كان يتقدمهم رئيسهم وهـو مجـدور بشع قد اطفأ الجدري احدى عينيه وطمسها فى حفرة عميقـــة بينما سلمت اخرى نافرة في محجرها لتنظر الى العالم في ضراوة بالغة متوعدة ، قد اقتفى اثره على مبعدة اثنان من اعوانه، احدهما سمين قصير مكور البطن من طيـور السجن المعروفين والآخر يضع حول منكبيه الاعجفين قباء من اقبية الاعراب ويعتمر كوفية بيضاء كرعاة الجمال . تقدم الرئيس الذي يحكم وضع خطواته على الارض كرجل واثق من سلامة حرفته واقتعد حجارة تجاه احـد البيوت

الخاطية باهتمام كبير من الرجال، حيث كانت البغايا يضطر بن عند المجار . كان الحر قد أودى بمزاجهن ، فنزعن لبوسهن الثقيل واكتفين بغلائل سود مخرمة ومسدولة من اكتافهن الى الارض في غيرما تانق ولا تجمل .

كانت اجسادهن منهوكة متعبة وجلودهن مخضرة معصورة رخوة تغلف لحمهن المهزول ،وقد فضح حر النهار وسطوع شمسه الباهرة اللمعان قبح وجوههن اليابسة المتخشبة الحافلة بالغضون والندوب .

قرفص ذو الوجه المجدور تحت ظل خفيف مرتعش تمده به شجرة كالبتوس وارفة.قد مالت باغصانها الى الطريق،وراح يرنو باشتهاء وتمتع بعينه الواحدة الى نزيلات البيت المقابل فيما هو يبسط منديله المطوي على التراب ويخرج من موضع من ثيابه ورقات ثلاث ، احداهما دينارية حمراء واثنتين سوداوين ،وشرع ينافل بينها بخفة ويرسل صفيراً خافتاً من بين شفتيه نصف المطبقتين ما لبث ان أنقطع حال ان تقدم اليه زميلاه في مشية مترنحة لامبالية كمستطرقين لايعنيهما الامر كله ووقفا تجاهه في سيما من الفضول والاستطلاع . صار المجدور يعمل الان فى جد وغدت ذراعاه اشبه بالة تخبط أشياء ما على الارض متمتما في صوت خافت ولكنه واضح اتم الوضوح :اسود الى احمر الك ـ ويعمد فى بعض الاحيان الى كشف اوراقه الثلاث فتستبين الحمراء الغالبة باسرع مما يفتح المرء عينيه ويغمضهما ،ثم تنزلق من بين يديه مفقودة الاثر . تقدم زميله السمين وانحنى نحوه باهتمام مصطنع يرقب تنقلات الورقة الحمراء ، فمد يديه فى بعض جيوبه متلفتاً ذات اليمين وذات الشمال باحثاً عن نظارة يشهدون النصف الدينار الذي اضجعه على احدى الورقات وشرع البدوي الهزيل يهمهم في ضجر تائقاً الى اصطياد شخص ما واسدال الستار عن الفصل الاول التمثيلي والبدء باللعب الحقيقي المربح،هاتفاً بين

حين وأخر منبهاً السمين الى مكان الورقة الحمراء - انتبه انها فى الوسـط - انها في اليمين - انها في اليسار .

انقضت نحو عشر دقائق دون ان يصطادوا احداً ، وقبل ان يطول انتظارهم الى ربع الساعة،تقدم اثنان ،احدهما يبدو موظفاً ذا مظهرمحـترم يضع عوينات خضراء ويعتمر قبعة من القش متأبطاً ملفة كبيرة اشبه بمحصلي الضرائب او اجرائي فى المحاكم ، واندفعت الى الطريق احدي بغايا البيت المقابل . . كانت شابة مليحة في نحو العشرين متوسعة العينين في جرأة ينهض على جانبي صدرها المتعظم ثديان مخسوفان صغيران مختفيان في طيات غلالة خضراء شفافة وفي قدميها المخضب كعبيهما بالحناء ،نعلان من جلد السختيان الاسود ، سارت بسرعة رافعة ذراعيها وكأنها تهم ان تطير، فاصطفت الى جانب الموظف تدرس اللعبة باهتمام محاولة ان تحزر اين تكـون الورقةالحمراء ، وقد أتت من الحركات الخرقاء والثرثرة والايماءات ما جعل وجودها بغيضاً الى اللاعبين ،غير انهم سمحوا لها بالوقوف والتفرج في سبيل تضخيم العـدد المتجمع وجذب لاعبين حقيقيين . زعقت البغي فى حنق حال ان خسر الموظف ديناره الثالث .

- الحمراء هنا على اليمين ، اين عيناك .

فانتهرها ذو الوجه المجدور في زمجرة صماء مغضبة وهم ان يطردهـا ولكنه ما عتم ان سكت قاذفاً في وجهها نظرة متوحشة ضارية فتابعت اسفة - «اواه انني مفلسة فلو كنت املك نصف دينار لسلبت كل ما معكم »فلم يلتفت نحوها احد ،فراحت تهز رأسها في تفجع وندم وتضرب باطن كفها في ظاهر الكف الآخر كما يفعلن النادبات في مجالس العزاء .

كانت تود لو تملك نصف دينار ، ولكن لم يقدر لها في ذلك اليوم ان

تملكه لانها لم ترق في عيني احد من الرجال ليستمتع بها ويدفع اجرها .

تقدم ثان وثالث ورابع وخامس حتى شكل مجموعهم قوساً كبيراً يتربع المجدور في وسطه كنجمة تتوسط الهلال ،بينما اتخذ زميلاه واجبهما الرئيسي وهو مراقبة الطريق من مداهمة الشرطة وطرد العناصر غير الراغبة في اللعب وخوض المعارك مع الخاسرين الاقوياء الاجساد الطامعين في استرداد خسارتهم.كانت يدآ المجدور تعملان بذراعين مرتعشين دون ان تختلج في وجهه جارحة تنبيء عن حزن او سرور ،والموظف مايزال هو المقامر الاول الموقر باعباء الخسارة ،فاغلب الظن انه يقامر براتبه او بمبلغ اودع لديه كأمانة وما عتم يلاحق الورقة الحمراء كما يلاحق الصياد غزالاً نافراً حتى اشرف على الخواء ، واحياناً يشق البدوي قوس اللاعبين ويلقي نظرة مستطيلة على المجدور ليطمأن على سلامة اللعب او يرشد خاسراً الى مكان الحمراء كي يدعه يكسب لتقوية معنويات اللاعبين, ويأتي ذلك بمهارة مذهلة لاتدع احداً يفطن الى حقيقة المناورة .

من اقصى البيت انطلق نداء ثاقب ـ مديحة مديحة ـ فاستدارت البغي مدركة لاي شيء يستدعونها فمضت بسرعة وهي تتوعد ـ الان سأغلبكم جميعاً ،سيكون معي نصف دينار ـ فاه البدوي بكلمة بذيئة لاقت استحساناً لدى الخاسرين .

مضت عشرون دقيقة حتى عادت البغي مرة اخرى الى الطريق ، وكان المتطلع من فرجة الباب يلمح فى غمرة تسرعها ساقيها قبل ان ينسدل فستانها الى الارض . اقبلت مثل العاصفة ضاجة صاخبة كأنها تخشى ان يفوتها مكسب كبير،فدفعت اللاعبين بكتفيها وصاحت فى اعتزاز ـ ها قد جئتكم،ان معي نصف دينار ـ ولوحت به فوق رؤوس الرجال، فرمقها المجدور ذو العين الواحدة

بنظرة شزراء منكرة ونخر في خبث وراحت يداه تعملان ولسانه يختشحش ـ احمر الك اسود الى حظك نصيبك يانصيب . ـ كان قد وطن العزم على ان يسلب من البغي نصف الدينار في اول جولة ، فيخرس لسانها الذي ثرثر نحو ساعة من الزمن .

كانت عيناها تدوران مع الاوراق،ورأسها يتذبذب فيتذبذب معه شعرها الجعد الداكن الشبيه بشعر الماعز،وتمهل اللاعبون وفي نفوسهم جميعاً حنق ملحوظ وموجدة متأججة نحو البغي الثرثارة المهذارة،تائقين الى خسارتها أشد التوق لادخال المسرة الى نفوسهم،واذ ما وضعت نصف دينارها التمعت عين المجدور في خبث وارسل البدوي ضحكة قصيرة شامتة ونفخ السمين في الفضاء نفخة رنانة كلها استهزاء ونكاية.كانت ورقةسوداء خاسرة ، فجمدت البغي استحياء وخجلاً،عبست وقطبت حاجبيها وهمت ان تزمجر بشيء ما،الا انهم احسنوا اسكاتها بنظرات كالحة مهددة ، فاذعنت في استسلام واخلدت الى السكينة مركزة اهتمامها بالموظف ،لكأنما قد اخذتها الشفقة على حاله ولا تني تتحسر وتتأوه على النصف الدينار الذي اناله اياه رجل مثل هولاء الرجال المقامرين فخسرته في غمضة عين ولم يتعب المجدور ولم يشق قدر ماتعبت وشقت واهدرت من كرامة .

اخذ الظل يتقلص ساحباً فراشه الرمادي المستطيل من عرض الطريق منهزماً امام سهام الشمس المحمية المحرقة ،وغدا ظل المجدور ينصب كله فوق الورق وقد تصبب العرق من جبينه وانحدر على خديه في خطين منكسرين . واذ ما هم الموظف ان يضع نصف ديناره الاخير امسكت البغي بذراعه وسالته في توسل .

ـ لاتعال معي ،ليكن نصف دينار من نصيبي .

فجذب الموظف ذراعـــه بقوة وكأنما هي تدنسه بقبضتها،فرفع اليها المجدور عينه الواحدة متوسعة محمرة ملتمعة البؤبوء بحقد شرس وصب عليها محيطاً من كلماته الجارحة المخزية جعلها تستدير مخذولة وتشخص الى بيتها ،واذ ماخسر الموظف كل مايملك خرجت له معاتبة .

ـ اكان حرام لو اعطيته لي .

فصعد فيها الموظف نظرة حزينة نادمة دون ان يجد كلمة مناسبة يطيب بها خاطرها،وسرعان ما دلف الى المنعطف وغاب عن الانتظار .

تفرق المقامرون واللاعبون ، يغمرهم العرق ويجلل هاماتهم الغبار واتخذ كل سبيله من اجل مغامرة جديدة .

عقليـــة الامس

كانت الضوضاء تنبعث من صحن البيت وتبلغ اذني هناء فى الطابق الثاني ،حيث كانت قد آوت الى الفراش مع ولديها عندما بلغت الساعة التاسعة بعد ان انجزت كل ما يمكن انجازه من مهام البيت الكثيرة ، وفوق ذلك فقد تباطأت اكثر من المعتاد املة ان ينصرف هؤلاء المحدثون لهذه الضوضاء كلها ولكنهم لم ينصرفوا ، انما غطسوا عميقاً في ارائكهم واراحوا رؤوسهم بالمتاكيء وكأنهم يتوقون الى وجبة عشاء دسمة تعقبها وجبة جديدة من القهوة والشاي .

كانت الضوضاء محتملة بعض الشيء ومؤنسة لا سيما النحيب المصطنع الذي تطلقه امرأة عجوز عندما تداهم الشرطة بيتها وتختطف ابنها الوحيد بحجة انتمائه الى جمعية سرية ارهابية ، اما بقية الممثلين فكانوا يتناقرون بديالوجاتهم كالديكة المجتمعة حول مزبلة صغيرة ، لا يكاد احدهم يشكو الظلم وتعسف السلطات حتى ينبري الاخر يندد بالسجون و الزنزانات ويقترح الثالث بضرورة القيام بمظاهرة ضخمة تزلزل الحاكمين وتضطرهم الى الانحناء نحو مطاليب الشعب . اما الصوت الحاد القارص الذي اقلقها واثار وساوسها فكان صوت الممثلة المجهولة التي اضطلعت بدور الارملة التي فقدت زوجها فى مجزرة السجن الشهيرة ،وتتعاون مع فائق زوج هناء في ادارة مطبعة سرية تطبـــع نشرات صغيرة يتناولها بعض الثائرين ويلصقونها على الجدران او يلقون بها في افنية

البيوت ومجازاتها ،ولاجل ان يمحو زوجها الفتور الذي قد يستبد بالمشاهدين من جراء عنف مسرحيته وخلوها من العواطف ،فقد اصطنع مشهداً صغيراً لتمثيل دور الحب بينه وبين الارملة .

كانت ترددديالوجها - لسوف تشرق شمس جديدة على هذه الارض المثقلة بالاحزان ولسوف نغدو سعداء -ويجيبها فائق بديالوج حالم وهو في حيرة من امره - ونحن الاثنين ما الذي سنفعله ، انني اريد السعادة للشعب كله كما اريدك ان تكوني الى جانبي . فقد احببتك ياعزيزتي لانك خدمت قضيتنا الكبرى وعملت الكثير من اجل الشعب المستعبد الرازح بالالام .

غمغمت هناء هازئة - شمس جديدة ، كأن الشمس جورب يعتق ويتجدد .

تملمت في سريرها وانصتت الى الساعة التي اعلنت التاسعة ، وبعدها نهض اثنان او ثلاثة من الممثلين وانصرفوا في ضجة بعد ان جرى همس خافت مع زوجها عند الباب .

لم تعد تطيق احتمالاً ، فقد حسبت الامر كله مناورة . تركت سريرها في الظلام واتجهت نحو النافذة التي تطل على صحن البيت وامعنت النظر في الممثلين القلائل . فلم تسرها وجوههم البتة . كانت الممثلة المجهولة تروح وتغدو في حماس وقد حملت اوراق دورها وهي تردد ديالوجها - لسوف تشرق شمس جديدة على هذه الارض المثقلة بالاحزان ولسوف نغدو سعداء ...

فيرد فائق - ونحن الاثنين ما الذي سنفعله ... الخ .

هزأت هناء - ما الذي سيفعله . لا يدري . كأنه صبي لم يتزوج بعد ولم ينجب ولدين اثنين - كانت تمثل في براعة فائقة ، وكأنها ممثلة عريقة

متمرسة سلخت عمرها على المسرح ، بينما هي تمثل لاول مرة . وكانت بادىء الامر خجولة مترددة ،تتساقط من فمها الكلمات كما تتساقط قطرات الماء من الفم الادرد .تمتمت هناء - انها ليست على مثل هذه البراعة عندما اكون الى جوارها ولعلها تخفي عواطفها كيما تخدعني وتبدد ظنوني . .

اعلنت الساعة العاشرة . فقدرت هناء ان عدد الموجودين قد اصبح ثلاثة . زوجها والممثلة المجهولة وذاك الصعلوك الاخير الذي يصطحب الممثلة الى بيتها ويقوم بحراستها في الطريق ولايؤدي عملاً آخر . كانت تشعر بالنعاس يثقل جفنيها ، فغالبته في اصرار وقعدت فوق السرير ترنو الى ولديها النائمين في سرير واحد ،وهما يتنفسان في لطف ووداعة .

لكم بدلتها الايام . كانت هي الاخرى فيما غبر من الايام ممثلة مجيدة تظهر على المسرح وتلقي دورها في جدارة فيصفق لها المشاهدون وتنحني لهم شاكرة . كانت تمثل بأسم آخر ولعل الناس يذكرون مديحة يوم . مثلت دور عبلة وليلى وكليوباترا الى جانب زوجها فائق،ولكنهم لايذكرون هناء الساهرة في غرفتها تنتظر ان ينهي زوجها بروفاته مع الممثلة الدخيلة المريبة ويأتي اليها .

لقد احبت فائقاً في صباها وتدلهت به تدله العاشقات . كان انذاك ممثلاً صغيراً قليل الشأن متفانياً في خدمة الفن . اختصم مع اخيه الكبير ذات مرة خصومة مفتعلة وهجر البيت الكبير المريح والتجأ الى غرفة حقيرة في فندق متواضع من غير فراش محترم واقتات بأيسر الاطعمة من اجل ان يذوق طعم المرارة ويجرب شظف العيش ، ويتشرد على حد تعبيره ، كما تشرد من قبل نجيب الريحاني وعزيز عيد ويتلقى دروساً من الحياة نفسها لامن جدران المدارس، ولولا ان يتداركه اخوه ويعيده الى البيت لكان فائق

قد ماتت جوعاً .

كذلك كان فائق فى صباه ، وقد احبته هناء واصطفته صديقاً في بادىء الأمر ، يقومان ببروفات منفردة ، ويحفظان ادوارهما معاً ، ويتحدثان عن مستقبل الفن ويقسم احدهما للآخر ألا يرتقى خشبة المسرح الا مع صاحبه وعجبت هناء كيف خانت قسمها هـذه المرة ، وغدت تصنع القوة والشاي للممثلين بدل ان تنخرط في صفوفهم وتمثل الى جانب زوجها . فقد قاومت فيما مضى الامها ودارت حملها طوال اشهر وسترت بطنها الكبير وراء مشدات قاسية ولم تتخلف عن دورها في يوم .

ـ اعلنت الساعة العاشرة ،ولم يعد ثمة صوت يمكن ان تلتقطه الاذن من اي مكان ،فقد خيم السكون فى ارجاء البيت ، وارتفعت وصوصة الفئران من المطبخ ، قال زوجها في رقة ...

ـ بروفة اخيرة على ان تكون بالغة الجد وحماسية . ارجو ان تطلقي العنان لعواطفك كما اطلق العنان لعواطفي نحوك ـ فأجابت الممثلة .

ـ اية عواطف لي نحوك ، كلها الى حد .

فشعر فائق بالخجل والارتباك ، اذ لم تكن ملاحظته في مكانها .

هزأت هناء ـ لقد طاش صوابه ، كذلك كان يفعل ايام غرامي معه يسهو عن دوره ويشرع بمغازلتي، لم يعد في الامر شك ،فغلبها التأثر وعادت الى سريرها حانقة ضجرة تقلب وجوه الرأي لوضع حد لهذه المسرحية المزدوجة التي تمثل على مسرح بيتها . لامت نفسها لانها لم تضطلع بالدور ولامت زوجها لانه لم يقترح عليها ولم يشجعها ولم يكترث لمواهبها ، ولو تكن تدرى ان جنية داهية ستنبثق في بيتها وتهدد سعادتها وتصرف عنها انظار فائق واهتمامه .

احست هناء ان قطعة ضخمة من الزمان قـــد تصرمت قبل ان يبرز فائق في وســـط الغرفة وعليه بيجامته الخضراء المجعدة وهو يخلل شعره براحتيه ويتنهد تعباً ،سألته هناء .

ـ هل انتهت البروفات ؟ فأجاب

ـ انتهت ، انها اليوم في غاية الاتقان لشد ما أنا معجب بقوتها . كنت ابحث عن وجه مثل وجهها فلم اوفق ، كنت اتحسر على صوت نسوي حاد معبر ملىء فلم اعثر عليه ،انها الممثلة التي كنت اريدها لمسرحيتي افتتح بها العصر الجمهوري الذي اهل علينا منذ اشهر .

سألت هناء بعدم ارتياح ـ ترى هذه كل صفاتها التي جعلتك تفضلها على سواها من الممثلات ـ فوضح لها فائق وهو يستشعر دبيب الغيرة في صدر زوجته .

ـ انها جريئة مناضلة ،قتل زوجها في السجن حقيقة وواصلت النضال حتى انبثاق الثورة . انها تمثل حياتها ، وهـذا امر يندر ان يحدث ، وان حدث فتكون المسرحية قد ارتفعت الى الذروة وحققت اعظم نجاح

قالت هناء باختصار وتحد

ـ انني أراها صعلوكة

ـ ارجو ان تحسني الحكم على الناس ـ فلم تطق هناء صبراً فأزاحت اللحاف وتقدمت نحو فائق وحدجته بنظرة غيظ وقالت

ـ اذن قد أكون انا الصعلوكة التي تسمح لزوجها ان يعبث على هواه ويغازل بطلته المناضلة

فبهت فائق لصراحتها غير المعهودة وحدق فها مليا وقال

ـ هناء ،انها فرصتي الوحيدة لاكون بطلاً من ابطال المسرح

ـ وانها فرصتي الوحيدة من اجل انقاذك من حبائلها

ـ تريثي قليلاً وامعني النظر . انني قـد تجاوزت الاربعين ولي ولدان وانت زوجة كريمة . تعلمين كم سهرت وكم تصببت عرقاً وكم اهرقت من حبر واتلفت من ورق من اجل ان اكتب مسرحيتي ـ شمس الغد ـ ان كل عبارة سطرتها في المسرحية خرجت من دمي وهي عصارة ذهني . . وها انت تخرفين وتهذين وتعرقلين مشروعي .

هتفت هناء وتكاد العبرات تخنقها « كيف لا انها تغازلك ،تريد ان تختطفك مني . تتعلل بشتى الاعذار من اجل ان تخلو معك »

قال فائق وهو يكاد يرثي لتصوراتها

ـ هناء انني لست كالأمس ، كنت امثل عنتر ومجنون قيصر ، فأبكي وانتحب واهرع الى الاطلال وأنت عبلتي وليلاي ، تتحجبين وراء الخباء ولا تملكين لنفسك نفعاً ولا ضراً .كانت كلمات المسرحية بالامس تنقح غير مرة وترش وتكنس وتتعرض للتحريف والاضافة من اجل ان تسلم من سيف الرقيب . وثمة عشرات الكلمات كان محظوراً التلفظ بها في ايما مسرحية كنا الملك نحرفه الى سلطان، والثورة الى فتنة، والشعب الى ناس ، والطبقات الى فئات، والنضال الى تظلم ،والبلاط الى قلعة .ان ثورة تموز اعادت للكلمات اعتبارها وسميت الاشياء بأسمائها وانحسر الستر وانجابت الظلمات . وها انا اشق طريقي وامضي الى الامام في جو طلق حر سعيد .

ـ اترك الدور لي ـ سألته في جفاء ، وهي تخزره بعينيها المغضبتين .

تريث فائق لحظة ليصوغ جوابه دون ان يمس عواطفها ثم قال آسفاً .

ـ لايمكن يا عزيزتي انت الان بعيدة عن فهم هـــذا الدور، أنت لازلت تعيشين في عالم ليلى وعبلة ،واننا اليوم نجسد ثورتنا على المسرح ،نعرض خطوطها ونعمق مضمونها ونجلوها باهرة النور تشع على العالم كله . . قـــد

تنتظرين بعض الوقت ـ وهم ان يقترب من السرير ليستلقي فوقه .

قالت اخيراً ـ اذن تستطيع ان تدبر امورك بنفسك ، فانني منصرفة صباح الغد الى بيت والدي ـ واتخذت سبيلها الى الغرفة المجاورة واقفلت من ورائها الباب .

مع الفجر نفذت هناء ارادتها باصرار، حزمت ملابسها في صرة كبيرة وحملت ابنها الصغير بذراعها واقتادت الكبير من يـــده ومضت الى بيت والديها ، فوقف فائق على متكأ دارابزون الطابق الثاني وهو ما يزال بثياب النوم يرقب بحزن بالغ وأسف عظيم حركات زوجته وانفعالاتها .تلك الزوجة التي كانت الى وقت قريب اثيرة على قلبه ، لا تخالجه فكرة دون ان يبثها اليها ولا يخطو خطوة دون ان يستشيرها ويلتمس رأيها ، واذ انقطع عن التمثيل بضع سنين انقطعت هي الاخرى بالتبعية بسبب فساد الاوضاع والتضييق على الفكر واستحالة ارضاء الضمير بفن باهت مكبل يتنكر لواقع الحياة ولا يخدم فكرة شريفة . واذ ما قامت الثورة وتحررت البلاد وانطلق الفن من اساره القفصي وبزغت ايدلوجية جديدة قلبت الافكار كلها ، لم يكن في وسع هناء ان تماشي الركب وتنطلق مع المنطلقين فقد جمدت وتقوقعت وترسبت تحت السطح كما تترسب المادة المخاطية الثقيلة التي تعكر صفو الماء الرائق .

الا ان فائقاً احتمل صدمة فراقها على مضض وصار يستقبل الممثلين في المساء وحده ويحتار في أمور ضيافتهم ، فقد يفور الماء في الاناء وينسكب او يتحول الى بخار قبل ان يوفق فائق الى رفعه ، ويغلي الشاي ويبقبق ويفقد طعمه وهو منشغل في توضيح بعض الملاحظات لممثل يأبى ان يفهم دوره . وسألته الممثلة المجهولة ذات مرة ، علام هو وحده من غير زوجته واولاده ، فأحمر وجهه خجلاً واختلق لها كذبة بيضاء . الا ان طبيعتها النسوية غلبتها ،

فصارت تعين فائقاً وتختلي فى المطبخ ربع ساعة او يزيد من اجل ان تصنع الشاي والقهوة ، وكانت ذات مهارة في ادارة امور البيت .

اما النفايات والاوساخ واعقاب السكائر فكانت تملأ الارض وتتراكم يوماً بعد يوم حتى غدت تعرقل تحركات الممثلين ، ففوجىء الجميع ببطلة المسرحية الانيقة تحمل مكنسة وتعيد للارض رونقها ونظافتها ، وكثيراً ما كانت تلقي الاكواب في الزوايا او على النوافذ فتتحطم او تداس بالاقدام ، فينحني فائق ويجمع حطامها بيديه ويحمله الى المزبلة ، وتعذر عليه ان يحظى بأكلة شهية مريحة ، فهو يتنقل بين المطاعم ويلتهم شتى الاطعمة التي كانت تورثه فى الليل الماوصداعاً ، واحياناً يتقيأ ويشتهي كوبا من الشاي فيجد نفسه وحيداً فى البيت .

قاوم بصلابة ورجولة حقة ، وأقام على البروفات فى مواعيدها بهمة لا يزعزعها اليأس ولا يفت في عضدها احتجاجات هناء وانصرافها . وشعر ان صحته ليست على ما يرام ، فصار ينتابه الارق فأضطر من اجــل ذلك الى الاسراف في التدخين ، فيستيقظ مبكراً ويهرع الى عمله النهاري ويعود فى المساء تعباً مكدوداً ما ان يستريح ساعة من الزمن حتى يفــد عليه الممثلون تباعاً ويمكثون الى نحو منتصف الليل .

وقد ذكرت صحيفتان او ثلاث اشياء عن مسرحية ـ شمس الغــد ـ في حقلها الفني ونوهت بجدارة فائق وماضيه اللامع وهمته القعساء ، واعلن ان المسرحية فى طريقها الى العرض بعد ايام قليلة ، فطبعت البطاقات وصمم الديكور حسبما يمليه عليه ذوقه الفني وخبرته الطويلة .

وحل يوم العرض . غصت القاعة بالمشاهدين فأزيحت الستارة في ميعادها المضروب وبرز الممثلون ينطقون بكلماته الرصينة الموفقة ، ما ان

ينتهي احدهم من ديالوج حتى يعلو التصفيق ، كانت المسرحية كلها تنـــدد بالاستبداد وتهيب بالشعب الى الثورة المسلحة بوجه الحكومة الغاشمة ،فيقتل من جراء ذلك بعض المناضلين ، وتجرد الشرطة حملة شامـــلة بالقبض على المشبوهين . ويزآر الشعب مرة اخرى فاذا هو كالأعصار العاتي المدمرفيقتلع الظلم من جذوره ويطوح بالحكومة الخائنة وتنهزم الرجعية شر هزيمة .

كان انتصارالمسرحية ساحقاً ، وتواصل التصفيق فى غير امهال واطنبت الصحف فى مدحها والثناء عليها .

وفي كل ليلة كان يأمل فائق ان يعثر على هناء بين المشاهدين ، فكلما القى ديالوجه الذي استفزها آسف على حماقتها وتصوراتها · الا انه رآها آخر ليلة قد اقتعدت كرسياً امامياً ومعها ولداهما الصغيران . كان المشاهدون يصفقون وكانت هناء تكاد تبكي من فرحها وكان ولداه يومئان اليه ويهتفان ـ بابا بابا ـ فاختلجت شفتا فائق وكاد يرتكب هفوة وهو على المسرح متقمص دوره سالب اعجاب المشاهدين . وما ان نزلت الستارة على الفصل الاخير ، حتى انفجر التصفيق فى كل مكان . وهرع اليه الصحفيون يهنئونه ويلتقطون له الصور . .

لم يعد الكرسي يتسع لهناء ، ولم يعـــد المكان كله بقادر ان يحتويها من غير ان تضيق به ، فاخترقت الصفوف مع ولديها وشخصت وراء الكواليس، فلقيت فائقاً يتقبل التهاني وهو لما يزل بملابس المسرح والمكياج يلطخ وجهه ، فارتمت بين ذراعيه وغمغمت بندامة ـ قدنى الى البيت ـ فلم يعنفها فائق ولم يزجرها ، بل مسد يديها وكفكف دموعها واحتضن ولديه ومضى بهم جميعاً الى البيت .

وحينما قدمت المسرحية في المرة الثانية بعـد بضعة اشهر كانت هناء هي البطلة المناضلة تمثل الى جوار زوجها وغدت ممثلة كلها صلابة وعزم ، واختفت من حياتها عبلة وليلى والانتحاب وراء الخيام .

ولا تزال نوبات الندم تنتابها من جراء ما سببت لفائق من متاعب لم يكن لها مسوغ سوى ارضاء حماقتها وغيرتها .

اعجوبة العذراء

كان كاهن البلدة يقطع الطريق في غير عجلة ، قد التف بلباسه الاسود الداكن مدخلاً كفيه في اكمام ثوبه الواسعة ، قد غمره سواد الليل الحالك ، وعبثت بمسوحه ريح باردة رفيقة ، أهاجت أغصان الشجر فأطربتها بوشوشة موصولة اشبه بالهمس . كانت وحدها تكافح السكينة المطبقة وتلطف من وحشة الطريق .

كان الكاهن قد خرج من توه من بيت رجل كانت والدته في مرض شديد ،وهي عجوز بمراضة دانيـــة الاجل ليس الى برئها من سبيل ، فنهض الكاهن بواجبات الكهنوت . رفع فوق رأسها المنطرح على الوسادة صليبه النحاسي الكبير ورتل بعض الادعية وعقف اصبعاً وبسط آخر راسماً بهما خطوطاً فى الفضاء فيما كانت شفتاه المختلجتان تهمهمان في وقار وجد .

قالت المرأة ـ انني سأكون مدينة للعذراء بدستة من الشموع ان انعمت على بالشفاء وردت لي عافيتي ـ فطمأنها الكاهن في قوة ـ «ان العذراء تصنع الاعاجيب» ـ واستطردت المرأة تقول في وهن واكتئاب «وانني سأحمل الشموع واضيئها للعذراء »ـ فأجاب الكاهن ـ «سيكون ذلك اعظم جزاء على نعمتها وفضلها . »

ثم قام الكاهن الى العشاء فأصاب منه حظاً كبيراً ، فيما كان طبيب البلدة الوحيد يقوم بفحص المريضة فحصاً يائساً لاينفعها فى شيء ســـوى تسهيل أمر دفنها بشهادة الوفاة فيما لو قضت نحبها في الليل ، ومع ذلك فقد

نهض هو الآخر بواجبه التقليدي . كتب لها وصفة مقوية .هي قناني ملونة زاهية محفوظة في العلب يقال انها ترد العافية وتذهب بالداء .

كل ذلك وقع على مرأى من الكاهن . فقدر ان اجرة الطبيب باهضة من غير ريب واقيام الادوية كبيرة ،وهي في الغالب لاجدوى منها سوى التباهي والتفاخر امام الناس واراحة الضمير من ان المريضة قد نالت كفايتها وفوق كفايتها من الدواء ولم يفد معها نطس الاطباء وفحوصهم ، وكانت ارادة الله في النهاية أقوى وانفذ .

فكر الكاهن فيما هو يتخذ سبيله نحو الكنيسة ، ان الرجل الذي استدعاه الليلة للصلاة على امه المريضة مبسوط الحال ميسور الرزق ، فهو ينفق المال في سخاء من اجل شفاء امه ، وهذا ما يفعله الابناء الصالحون الاخذون بسنة السلف . انه بائع خمور في البلدة وقد واتاه الحظ فتجمع بين يديه مال كثير من اولئك العاملين في حرث الارض وتربية الاغنام والمتكسبين بضروب التجارة الصغيرة . وهم في الغالب كتل شبه معدمة تتجه الى دكانه في الامسية وتلوذ بالزوايا المعتمة ترتشف كؤوسها على مهل وتتلهى بقضم حبات الحمص البارد ونهش الخيار المملح .

ليس هذا موضع اهتمام الكاهن في المحل الاول ، فالمال يأتي بايدي الناس اتياناً طبيعياً مشروعاً طالما لايسألهم عنه القانون ولا ينتهي بهم الامر الى السجن ، انما يضفي عليهم وقاراً وتجلة ومكانة ، وهو بدوره ابن الكنيسة البار الذي اعتكف عشر سنين في الاديرة يتعبد ويدرس اللاهوت سيصيب قدراً طيباً فيما لو اختار الله الي جواره العجوز الورعة المشرفة على الموت . فمنذ نحو شهر لم يرتحل الى الآخرة انسان ، وكان آخر من شيع الكاهن الى مثواه الآخير ، رجلاً ثرياً وجيهاً يملك بستاناً كبيراً للفستق تجري المياه

لاسقائها ثلاث ساعات في اليوم الواحد ، وفوق هــــذا فهو نائباً وعضواً في البرلمان . لقد مات ذلك الرجل وصلى الكاهن على جثمانه فى الكنيسة والقى كلمة تأبينية مناسبة تقال عادة في تأبين الوجهاء واحرق البخور ورتل الادعية ورافق النعش حتى المقبرة . وكان اول من اهال عليه التراب .

في الربيع الماضي قدم هذا الكاهن الى البلدة . كان فقيراً طاوياً يتعثر بثوب اسود ناصل اللون،يحمل برأسه ولحيته مقداراً كبيراً من غبار الطريق ، فراح من يومه يتسقط بجسده هنا وهناك لجمع الاموال لشراء ناقوس وسجادة . اذ كان برج الكنيسة بغير ناقوس وكان المذبح بغير سجادة ، وها قد مضت عدة اشهر تجمع في يديه مبلغ يكفي لشراء ناقوسين وسجادتين ، ومع ذلك فلن يرن صدى لناقوس ولم يستر طابوق المذبح أية سجادة .

ان همسات مرتابة أخذت تروج على الالسن على شكل تبرمات واحتجاجات ، كانت تبلغ اذنيه وكأنه لايسمعها . كانوا يقولون ان في جيب الكاهن قائمة باسماء الناس الذين يتطفل على موائدهم في الفطور والغــذاء والعشاء ، وانه قد وضع تصميماً صارماً ألا ينفق فلساً واحداً ولا يوقد ناراً. وحتى الماء الساخن الذي يستحم به يجلب له من مرجل القاطرة ، ويقولون انه يضن على الكنيسة ان يعين لها بواباً او خادماً او حارساً يقف عند بابها او يجلو عن ارضها الغبار ، فهو ينهض بهذه المهام الدنيا ويحمل المكنسة كما تحملها أية خادمة طيعة .

حدث ان جابهه ذات يوم احــــد الشبان بسيل من التهم الموجعة والكلام القارص الشديد . لقد نعته باللص والمرابى والخداع والمتطفل على موائد الفقراء وطالبه بالناقوس والسجادة ولولا عفته مع النساء لكان من الممكن ان ينعته براسبوتين . فاستثير الكاهن استثارة بالغة وتدفق الدم الى

وجنتيه وصبغ اذنيه بلون الارجوان . وكما يفعل العاجز الذي لايطيق سماع الحق ولا يعترف به ، فقد رفع كفه الثقيل ولطم الشاب في ملء وجهه، وكادت تقع فضيحة إلا أن الكاهن الحصيف تداركها بشكل لم يكن خافياً على ابناء البلدة ، وهي ابلاغ امره الى السلطات باعتباره انساناً مشاغباً يهدد الامن بشر خطير ويروج للفتنة ويوهن الايمان في صدور الصالحين . كانت كلمة واحدة تكفي لكتم انفاس هذا الشاب وتشريده،الا انه اختفى بنصيحة ناصح وتلاشى خبره ولم يعد يسمع بذكره انسان .

كان ذهن الكاهن مكدوداً طوال الطريق فقد حسد الطبيب على أرباحه الطائلة حتى وان مات مرضاه ، وحسد الصيدلي ، ذلك العقاقيري الماكر الذي يمزج الحبر بالماء ويقدمه للناس . اما ربحه هو ، الكاهن الجليل الموقر بلحيته ومسوحه وصليبه فـــلا يربح الا القليل التافه ولا يتحقق ربحه الا بموت المريض والســير وراء جنازته وحضور الصلاةعلى روحه . وان بعضهم أخذ يستغني عن خدماته ولا يكرمه شيئاً في الاعياد بل ولا يلثم يده ولا يرجوه البركة ويسلك تجاهه وكأنه انسان من عادي الانسان . انه لامر محزن ،

انتهى به المسير الى باب الكنيسة الحديدي الكبير، فاخرج من طيات ثوبه الكهنوتي مفتاحاً ضخماً دسه في ثقب الباب واداره بقرقعة فانفتح عن مجاز طويل معتم كئيب ينتهي في ساحة كبيرة مرفوع في بعض جوانبها صلبان من الخشب فوق اضرحة الموتى القلائل الذين لم يرهقهم الثمن الذي تفرضه الكنيسة على اجداث الموتى الراقدين في ارضها . وقبل ان يعرج الى غرفته المنعزلة الصغيرة بأثاثها القليل العتيق مضى الى مؤخر مبنى الكنيسة حيث يحفظ الكاهن هناك مخزونه من المؤونة ليلقي نظرة فاحصة على دجاجاته ،

فوجد ان دجاجتين من كبريات دجاجاته قد وضعت بيضتين ، فانحنى فوق القفص والتقطهما فى استبشار وفرح وعاد الى غرفته .

فكر فى المرأة الورعة فيما هو ينضو ثيابه ويتأهب للاندساس في الفراش . انها قد لا تصبح صباحها ، قد تموت فى الليل او عند الفجر او مع صياح الديك ، فالنفس لاتدري متى يأتيها السارق ،كذلك يذكر الكتاب المقدس ، وان من غير احتمال للشك ان بائع الخمور سيأتيه وشيكاً ويقرع باب كنيسته بشدة وينتحب فى المجاز سافحاً عبراته السخينة على امه الميتة ويقول : ـ لقد توفيت احضر التشييع ـ ولسوف ـ يرد ليرحمها الله رحمة واسعة فمن يموت مؤمناً غير متخلف عن صلاته ، موقداً شموعه للعذراء فله الجنةوالملكوت ـ

اضطجع في فراشه وهو يقظان ونائم ، متوقعاً ان تخبط قارعة الباب في اية لحظة ، وها ان خيوط الفجر الفضية الشاحبة شرعت تلتمع وراء ستار النافذة وترآت المزارع الخضراء تحي الشمس المذهبة . وفي عجلة ملحوظة اتم اعماله الصباحية معتزماً ان يعود المريضة عند الظهر ويتناول الغذاء مع ابنها . فحمل مفتاحه الضخم ومضى الى المجاز وقبل ان يبلغ منتهاه ارتفعت القارعة وخبطت الباب قال في نفسه ـ ها انهم قد جاؤا ـ ففتح الباب ورأي امامه رجلين يسندان المرأة المريضة من الجانبين . كان ابنها بائع الخمور ومساعده . قالت المرأة في ضعف وامتنان ـ ايها الكاهن الطيب لقد انعمت على العذراء بالشفاء وها انني ابر بوعدي . هذه شموعي جئت اوقدها عند قدميها ـ فتمتم الكاهن ـ انها من غير ريب اعجوبة العذراء . . اجل انها اعجوبة الاتموت في الليل .

سارق الكلاب

لم يكن حسن مولعاً بتربية الكلاب ، ولم يكن يحلم ان يأوى ذات يوم كلباً في بيته ، غير انه صادف في احدى تجوالاته فى ارجاء المدينة كلباً صغيراً قصير الاقدام ابيض الشعر ناعم العينين تطوق عنقه جلدة رثة مذهبة بمسامير من النحاس .

كان هذا الكلب البائس المرتجف من الخوف قد وقع في قبضة صبي زقاقي حاف ارمد العينين غولي الخلقة ، راح يجره بحبل رفيع ، ويركله بقدمه فيجري وراءه الكلب المحتمل عذاب الهوان والقسوة في ثقل واعياء .

كان حسن عاطلاً ليس منذ اسبوع ولا منذ شهر وانما منذ ستة اشهر وهو التاريخ الذي انجز فيه بناء مدرسة الهندسة حيث كان حاسباً لمواد البناء .

كان يقرأ فى بعض الاحيان جرائد مجانية تقع بين يديه فى المقهى فيستخلص من سطورها اخبار الجرائم والاحداث البارزة في البلد ، وكان قد رأى الى صورة ذلك الكلب منشورة في صحف الصباح ، وقد دهش حسن لاهتمام الناس بأمر كلب من الكلاب ، وهو حيوان مرذول تقتل منه الحكومة المئات كل سنة ومئات اخرى يقتلها الجوع والجرب ، ودهش اكثر من هذا ان تكون للكلب صورة كما تكون للادميين . فالادميون ملزمون بتقديم تصاويرهم للصقها على جوازات سفرهم وشهادات عدم محكوميتهم وسواها ، فهل يمكن ان تكون للكلب حاجة من تلك الحاجات .

كان الاعلان قد نشر بهذا الشكل ـ فقدان كلب ـ

يرجى ممن يعثر على كلب ابيض صغير من نوع سبلث الموجودة صورته اعلاه والمفقود في شارع ابي نؤاس دار رقم كذا ان يعيده الى صاحبه وله مكافأة قدرها خمسة دنانير .

اذن عثر حسن على الكلب المفقود وهي فرصة طيبة تدر عليه بعض الربح للتخفيف عن عسر حاله وخواء جيوبه .

كان معه اربعون فلساً فقط .كانت في الصباح الباكر درهما فضياً استحال بين يدي القهواتي الى اربع عشرات ، اثنتان حمراوان واثنتان بيضاوان . تقدم نحو الصبي مصطنعاً الشدة والحزم ـ ايه انت ايها السارق من اين لك هذا الكلب . ؟

فتبجح الصبي في غير مبالاة .

ـ انه كلبي ماشأنك انت .

ـ ليس كلبك ايها السارق انه كلب الناس ، كلبنا نحن .

خطف حسن الحبل من يدي الصبي ولوح له بيده مهدداً بلطمة موجعة فاذعن الصبي بعض الشيء وقال ـ ان كان هذا صحيحاً فيجدر بك ان تعطيني اربعين فلساً فقد اشتريته بعشرين واطعمته رغيفين من الخبز ، انني لا ابالغ .

وجد حسن ان الارهاب والوعيد لن يجديا نفعاً مع هذا الصبي ، فهو ان غامر في الدفع والشد فان تكون النتيجة اكثر من تدخل الشرطة وضياع الكلب وضياع المكافأة بالتالي . فالاربعون فلساً اجدى نفعاً واضمن سلامة وادعى الى التستر والحيطة ، فرش بها وجه الصبي حتى تبعثرت على الارض . قال في تفضل ـ خذ ولا تثر جدلا اخر والا ابلغت امرك الى الشرطة فيضعونك في السجن ـ، واذ ماغاب الصبي في المنعطف امسك حسن بزمام الكلب وراح يمعن فيه النظر ويدرسه في تفحص وعناية ،فلم يقم في ذهنه ايما

شك في هويته ، فهو نفسه التي نشرت صورته في صحيفة الصباح،فحمله تحت ابطه سالكا به اضيق الدروب خشية ان يتعرف عليه احد الناس فينازعه فيه .

وفي البيت هبت في وجهه عاصفة احتجاجية تمثلت في غضب امه التي تكره الكلاب كلها وتتحامى صحبتها ،فهي في زعمها عدوة المؤمنات لقلاقة باوعية الطعام ، موسخة حاملة المبراغيث والقراد ولا يصح ان تقام امامها الصلاة . فاكد حسن لامه ان هذا ليس كسواه من الكلاب فهو ثمين محبب لقيه صدفة ولسوف يحمله الى اصحابه فيكافؤنه بخمسة دنانير . فانبسطت أسارير الام بعض الشيء ورجت ان كان لامناص من استبقاء الكلب بضع ساعات فالافضل ان يربطه باحكام عند الباب ويبعد عنه الاوعية والملاعق والفرش والاغطية فاذعن حسن لتعليمات امه واخذ بها جميعاً ،ثم اضطجع في الطرار مولياً وجهه شطر الباب لمراقبة حركات الكلب والايماء له .

قالت الام حال ان تهيأ حسن لمغادرة البيت مع الكلب .

ـ لاتنس السكاير والقهوة والسكر .

فاجابها حسن

ـ ولسوف ابتاع قميصاً وسروالا وحذاء .

فسرت الام ورجته بحرارة المؤمنات المقيمات للصلاة ان يكثر من غسل يديه وجسده بالماء وليفعل ذلك في حمام عمومي حتى يتطهر من ارجاس الكلب ،فوعدها حسن ان يمتثل امرها .

وفي شارع ابي نؤاس تبدت القصور الشاهقة وترف الموسرين وقد لقي حسن ضالته في غير عناء . كان قصراً ذا طابقين مشيداً بالاجر الاصفر وعلى النوافذ ستائر معدنية وكان الباب الحديدي مواربا بعض الشيء وكذلك الباب الخشبي الكبير المفضي الى جوف القصر ولاحظ حسن ان ثمة امرأة

تتارجح في المجاز النظيف المفروش بالبسط على كرسي هزاز يتجرجر من حولها فستانها الحريري ذو لون وردي جميل ،وما أن احس الكلب انه في مأمنه ومكان اهله وصاحبته حتى صار يتململ ويهر ويريد الافلات بقوائمه الصغار فهتفت المرأة في شبه خبل .

ـ اواه بوبى العزيز ـفتقدم حسن نحوها فتلقفت المرأة الكلب من بين يديه وضمته بقوة الى صـدرها المرمري الناصع البياض وراحت تلاعبه في حنان بالغ دون ان تضيرها وساخته . قال حسن في فخر وخيلاء .

ـلقيته في اسوأ حال، كان تحت رحمة صبي شقي راح يجره بالحبل ويركله بقدمه فيلهث المسكين تعباً وجوعاً وعطشاً وكاد يفتك به لولا ان اتداركه من بين يديه واحمله اليك ـ فلطمت المرأة كفيها فى اسى راثية لحال كلبها العزيز ، لقد اتسخ وجاع . انظر انه يلهث من الاذى ،يافرحتي ياسروري كنت اعيش من دونه اشبه بالام التي اضاعت ابنها ـ كان يبدو ان المرأة مقعدة تشكو داء في ساقيها مع انها فاتنة القسمات عامرة الصحة متوردة الوجه تفيض استقراطية وترفعاً وبذخاً ،فكر حسن انه من غير ريب كلب محظوظ لكم يسره ويبهج جوارحه او نال عشر معشار هـذا الحظ ، وهو حسن الانسان الرجل المفعم حيوية ونشاطاً .

أمرت المرأة وصيفتها ان تمنح حسن خمسة دنانير وتسقيه قدحاً من الماء البارد وتودعه عند الباب، فخرج حسن الى الرصيف مبرد الجوف تقبض يده على ورقة خمسة دنانير ،فنفذما اعتزم عليه . ابتاع لامه السـكر والشاي ونحو مئة سكارة ذات عقب ، كما اتباع لنفسه سروالا من قماش الخاكي وقميصاً امريكيا قصير الاكمام وحذاء صيفياً ذا سيور .

مضى نحو شهران وعطالة حسن اخذة في التمادى دون ان يدركهـا

منقذ ومخلص، فالقميص تداعي فوق كتفيه وتشقق الحذاء بفضل حرارة الصيف وتملصت بعض سيوره وغدا سرواله رثاً بالياً .

كان يقرأ الصحف بانتظام مؤملا ان يعلن الناس عن كلب ضائع فيجرد للبحث عنه حملة قوية حتى يعثر عليه ويفوز بالمكافأة . وكان احياناً يجتاز بشارع ابي نؤاس فى الامسية القائظة فيجد فستان المرأة مهـــدلا على الارض النظيفة وهي فوق كرسيها الهزاز محتضنة كلبها العزيز تلاعبه وتداعبه ، قد اقفلت الباب الحديدي على سبيل الحيطة ضد اللصوص . وقد فكر حسن لو ان هذا الكلب سرق مرة اخرى فليس بوسعه ان يعيده الى صاحبته لانها قد تظن به الظنون وتحسبه هو السارق في المرة الاولى وتبلغ عنه الشرطة . وفكر ايضاً ان بامكان رجلين ان يتعاونا في تنفيذ مثل هذه الخطة . يسرق احدهما كلباً من الكلاب المدللة وينتظر بضعة ايام ريثما يعلن عنه في الصحف فيحمله الاخر الى اصحابه وينالا المكافأة .

كانت ازمة الجوع اخذة بخناق حسن، فهو في هذه الايام مفلساً تمام الافلاس ، وغدت ذكرى الخمسة دنانير اشبه بحلم ماتع لن يتكرر بغير تدبير عاجل وجهد سريع ،فان لم يفقد الناس كلابهم المدللة فلا بأس ان يعمل هو باي طريق متيسر كيما يجعلهم يفقدونها ، فان لم تقع المعجزة فتدبر انت امرها كما يقولون فى الامثال .

كانت امام حسن قضيتـان ،هما تعيين الكلب اللائق للسرقة وتعيـين الشخص اللائق لمعاونته، اما القضية الاولى فقد حلت بيسر اذ لقى في احدى جولاته في جهة المسبح كلبـاً مدللا غاية الدلال ، غزير الشعر غريقا بصوف حليبي من خطمه الى براثن اقدامه . كان هذا الكلب المنعم الغاطس في حشايا الحرير والدمقس والمتقلب فى احضان شحيمة ناعمة والممسد بانامل رخصة

عاجية كان اصغر من كلب ابن نواس وأدق منه قواماً واخفض بطناً وافتن جمالاً واروع شكلاً . كان هذا الكلب في صحبة امرأة ايضاً ليست عراقية ولا عربية قد تكون في الغالب امريكية .وهيفارعة الطول ممشوقةالقوام تنتعل حذاء عالياً تضرب به الارض في وقع رتيب متساوق .قالحسن لنفسه ان المكافأة هذه المرة لاتقل عن خمسة عشر ديناراً ، اذ بهت لهيام المرأة بكلبها فقد تكون ليلى قريبة الى قلب قيس ولكن ذلك الكلب كان اقرب منها الى قلب صاحبته .

كان مطوقاً بحزام جلدي يلتف حولبدنه كله ، مشدودة به سلسلة من الحديد تنتهى بعروة تدخل فيمعصم المرأة كلما اصطحبته فى نزهتها المسائية المحتومة فى كل يوم .

اما المعاون المنشود فلم يوفق حسن للعثورعليه .كان يستحي بفكرته من ان تقابل بالهزوء والسخرية وانتهى به الامر الى قرار ، هو ان يخطف الكلب بنفسه ثم يبحث عمن يعيده الى صاحبته زاعماً لها انه عثر عليه بالصدفة فتكون المسألة في غاية السهولة .

قرر حسن ان يترصد الكلب ويسرقه ،وفي خلال تردده المستمر لبضعة ايام في جهة المسبح لاحظ ان المرأة تترك كلبها موثقاً الى شباك النافذة بين الساعة السادسة والسابعة والنصف حيث تستقبل ضيوفاً كثراً ينهمكون فى رقص سريع تصحبه موسيقى جاز صاخبة تصم الاذان .

كان مساء معتماً منغير قمر ولا نجوم، فترصد حسن المرأة نحو نصف ساعة حتىاقبلت من نزهتها المسائية فاوثقت الكلب الى النافذة ومضت الى ضيوفها لتراقصهم على نغمات الجاز . وهدرت الموسيقى واخذ الرجال بحضور النساء ودارت الحلقات اشبه بالدوامات العنيفة وتملك القوم حال

من الوجد الصوفى ،فتسلل حسن عبر الحديقة مخففاً الوطء محترساً محاذراً حتى بلغ النافذة وحل وثاق الكلب وحمله تحت ابطه وهم ان يعود الا ان الحظ خذاله في آخر لحظة، فقد ابصر به احد الضيوف ودفع عنه مراقصته في الحال واندفع الى الحديقة هاتفاً في غيظ ـ احدهم يسرق الكلب ـ

وخف من ورائه جمع من الرجال ، واقبلت المرأة في اعقابهم مهلوعة الفؤاد مصعوقة فاطبق جمعهم الكاسر على حسن كما يطبق الفرسان على ابن اوى،وفرسته المرأة في خاصرته وتبرع له اخر بلكمة خلخلت اسنانه واسالت من فمه الدم . ان حضارة الجاز الامريكية ورقصات السامبا لم تخفف من ضراوتهم، فاقتادوا حسن الى المركز وقد رثت اسماله اكثر من ذي قبل وتضرج وجهه بالدم وعلاه الطين فاوقف هناك، فاذا بسرقة اخرى تنسب اليه هي سرقة كلب ابي نواس . وفي المحكمة بعثت المرأة المقعدة بمحاميها لرفع شكواها امام الحاكم فغرم حسن خمسة دنانير وحكم عليه ثلاثة اشهر بالسجن .

من مباهج العيد

استيقظ عليوي في الفجر كما اعتاد ان يستيقظ كل صباح ، واول مانبادر الى ذهنه ، هو ان يتعجل بالذهاب الى سوق الفضل ، لا ليشتري لحماً وخضاراً كما هو المألوف لدى الناس ، وانما ليبيع هو نفسه سلعة رخيصة هي قوة عمله . يأتي بها كل صباح الى هذا السوق ويضعها على قارعة الطريق في غير ماتزيين ولاتجميل فيمر بها المشترون يتفحصونها في غير رغبة ، ثم يشيحون عنها وجوههم . انها سلعة جافة متعبة لاتشبع الحاجة . .

لم يطل بعليوي الوقت ،فسرعان ماكانت قدماه في الطريق متجهة الى سوق العمل . كان عليه جلباب اسمر وسخ تجمدت عليه قطرات العرق وتراكم عليه الطين حتى غدا لونه بلون (السيان) وقدماه حافيتان كبيرتان تنعمان بمقدار طيب من الوساخة ، واذ مابلغ المكان المقصود تطلعت عيناه الى فوج من امثاله . جماعة من الحفاة البائسين احتشدوا وسط الطريق بين حوانيت باعة الفواكه والمرطبات واللحوم ، اندمج فيهم عليوي بعد ان همهم بشدة ليعلن لزملائه انه قد حضر ،وراح كل منهم يمني نفسه بالعمل في هذا اليوم المشرق بشمس الصيف المحرقة ، فيستطيع في اخر النهار ان يتذوق هذا الشربت الذي يبيعه الحاج كرومي او يستريح في دكان ابو محمد ريثما يشوي له سيخين من كبابه المشحم الدسم ، ان هؤلاء الباعة لذوو خبرة في استئصال الجوع وقتل دابره ولكنهم لايطعمون الطعام على حبه وهـــذا ما لا

يحمدون عليه ، كل يطلب قروشاً بخسة وهذه القروش لاتتوفر الا لذي الحظ العظيم الذي يستأجره « الاسطوات » وارباب العمل . .

لكم يبدو محزناً منظر هذا الفوج المهزوم الجائع الذي يبني منازلنا ويشيد معاهدنا ومشافينا ،وعلى يديه الجبارتين تقام القصور والقلاع والعمارات ، يقفون هناك بقلوب واجفة مرتعبة وعيون زائغة متلصصة يخشون الخشية كلها ان يفلت هذا اليوم من اعمارهم كما انفلتت من قبل ايام وايام بغير كسب ولا اجر .

وعندما حضر « الاسطوات » وارباب العمل ،استعد فوج العاطلين للاقاتهم بنظرات جامدة رصينة وبصدور مدفوعة الى الامام وبسواعد غليظة مكشوفة من تحت الجلابيب . . انهم يعرضون قوة اجسادهم كما تعرض الجواري مفاتنهن في اسواق العبيد . ، كان عليوي واقفاً بين عاملين طويلي القامة متيني البناء ، فمر بهم رجل سمين متورد الوجه موفور الصحة لازال يتجشأ من فطور الصباح ، فجذب العاملين من ثيابهما وترك عليوي مبهوتاً ، اراد ان يتحرك فأشار اليه الرجل ان يجمد في مكانه ، فجمد خائفاً مذهولاً . .

في مساء ذلك اليـــوم انطلق عليوي في الطرقات يداري جـــوعه « بالونونة » الخافتة التي يبعث بها من بين شفتيه المطبقتين حتى انتهى الى ارض فسيحة مهجورة وجد عندها رجلا من اصدقائه القدماء يدق اوتاداً في الارض ويشد عليها حبالاً غليظة من الليف ليقيم اراجيح للعيد ،قال الصديق ، اشتغل معي ياعليوي ، غداً العيد وهنا منطقة تعج بأولاد الاغنياء والموسرين فالكسب موفور والربح كثير. ماعليك الا ان تدير دولاب الارجوحة وتقبض سبعة دراهم في نهاية النهار . .

امضي عليوي ليلة بهيجة بفردوسه المفقود الذي عثر عليه في الخربة

بعد غيبة وطول فراق ، وفي الصباح باشر عمله ، كان يوم عيد والدنيا تتراقص في اعين الاطفال وقد تضاعف عدد باعة الطعام ،فأقسم ان عليوي يطعم هذا اليوم كل الاكلات الشهية التي حرم منها زمناً ، كان عمله ان يدير ارجوحة كبيرة عالية تتأوه اخشابها وتتأود وتطلق قرقعات حزينـــة كأنها عربة مهشمة يجرها حمار هزيل . .

تجمع حوله الاطفال يتصارخون ويتدافعون ، وقد ارتدوا ملابـــس جديدة ، حمرا وخضرا ، وفي ارجلهم احذية صغـــيرة ضيقة لا يفتأون يمسحونها بمناديلهم ، وفي قبضاتهم دراهم قليلة ينفقونها على مباهج العيد . .

كان الجو حاراً والشمس قد الهبت الدنيا بنار كاوية محرقـــة تنصب بحرارتها القاسية المتجاوزة حد الاحتمال على جلباب عليوي وتنفذ الى كل جسمه فتجعله ينز عرقاً ، وبين اونة واخرى يرفع جلبابه ويمسح بأطرافـــه الوسخة العرق الغزير الذي يتجمع على جبينه وعينيه وتحت ابطيه كما يتجمع البخار على غطاء المرجل ، تقدم اليه طفل جميل مدلل نظيف الملابس وضع في كف عليوي عشرة فلوس واشار اليه ان يصعده الى مقعد الارجوحة فامتثل لامر الطفل ،فدار الدولاب المهشم بقرقعاته وازيزه واخشابه المهلهلة الـــتي دقت على عجل ، واذ مابلغت الارجوحة بالطفل الى الذروة وقع امر فظيع . تهاوي المقعد من تحت الطفل وارتطم بشدة على الارض فسقط مغشياً عليه والدماء تنزف من جبينه ورأسه ،فانحنى عليوي الى الارض يتأمل برعب الدم الغزير المتدفق ، احقاً هو الذي ارتكب هذا الجرم الكبير ، ثم مع من ؟ انه من غير ريب ابن رجل موسر كـــبير . انتشرت في المكان زمجرات وشتائم فجمد عليوي في مكانه ينتظر العقاب ، استسلم بكليته للقدر ،فلو شاء طفل ما ان يجره ويشده ويلقي به الى الارض ويدوس على عظامه فليس في مقدوره

ان يفعل شيئاً ،وسرعان ما جاء المؤدبون المنتقمون في حشد غاضب مهتاج من النسوة المتزينات بفساتين العيد ، زعقن وصرخن وانحنين الى احذيتهن فتناولنها وانزلن بها في غير رحمة على رأس عليوي وكتفه وظهره وعينه فأحنى قامته لهن ليكون في وضع افضل لضربه ،واستطاع المسكين الفاقد لاي ضرب من المقاومة والنجاة ان يرى من سيول العرق المتحدرة من كل اطراف جسده سواعد النساء البيضاء المستديرة الملتمعة بالاساور والمعاصم الذهبية وانه والحق يقال لم يشهد ذراع امرأة ينكشف الى هذا الحد ، لقد نلن كثيراً من جمجمته الخالية من الشعر وتركن لطخاً حمراً على اضلاع صدره وفي كتفيه او رئته اشد ، الالم ثم جاءته الشرطة وجرته الى المركز ، كان احدهم يهتف من وراء ظهره ، ما الذي فعلته يامصخم انه ابن فلان . . واندفع الاطفال . . حتى اولئك الذين حملهم بيديه الى الارجوحة يصرخون ويضحكون ويبتهجون بهذه المتعة الطارئة . . واخيراً ادخل الى قفص التوقيف واغلق من دونه الباب ، فشعر بمزيد من الحرارة فى ذلك المكان وصعدت الى انفه روائح ثقيلة حبيسة . كان معه كثير من اللصوص والسكارى ، انبطحوا على الارض او تعلقوا بالقضبان ثلاثة ايام العيد في هذا القفص ، يالها من متعة عيد بهيج . .

عامل قير

كان حطحوط يبحث عن عمل ، وهو شاب يافع في الخامسة والعشرين، اسمر البشرة ارمد العينين هرقلي القوة دمث الخلق قدم العاصمة منذ اسبوعين ، خاو جائع متشقق القدمين بالغ السذاجة والطيبة مخلفا في قريته النائية التي تبعد عن خط السكة زهاء ثلاث ساعات مشياً على الاقدام ، ابا يعمل فلاحاً لدى ملاك موسر يملك ارض القرية وما يحيط بها من مزارع واطيان ، يعيل هذا الاب خمساً من الاولاد والزوجة ، ان الحياة ليست سهلة لهذه العائلة ، بل عسيرة نكدة مفعمة كداً ومشقة ، ولذا فقد هرب حطحوط من جورها وثقلها وحط رحاله في بغداد ، وأي شيء هي بغداد ، هي الدهليز الطويل المظلم الكئيب العاوي طيلة يومه بأبواق آلاف السيارات والمحتشد بآلاف البشر ضاجين صاخبين في ولولة وجوع وشماتة وجنون . .

تذوق حطحوط مرارة الجوع شاعراً انه اصيب باضعاف وطأته ايام كان في القرية ، فهو يتطلع في هذين الاسبوعين بملء باصرتيه المريضتين الى حوانيت الطعام وصحون الحلوى ولوالب اللحم المشوي المقطر سمناً وابخرة كراع الغنم وجماجمها واضلاعها في شهية عارمة فتاكة ، ان الجوع قد ابهظه واستحلب ريقه ، انهم يقولون ان لاضيافة في بغداد ولمن يريدها عليه ان ينكب على المزابل او ينافس الكلاب في نهش العظام .

انخرط حطحوط في زمرة المعذبين الاشقياء يقال لهم - عمال

التبليط ـ انخرط في هذا العمل بعد جهود وتوسلات ، فتعين عليه في اول يوم ان يحمل فوق رأسه علبة كبيرة مستديرة من الخشب يصبون فيها القير من الاتون الذي يحمونه فيه ثم يفرغه امام عمال آخرين يأخذونه بالدلك ـ بمشابك ـ تشبه مشابك الخبازات حتى يفرشونه فوق الحصى والحجارة .

فهم حطحوط من يومه الاول ان هذا القير محرق مدمر اذا سقط منه شيء على جسد انسان اتلفهواحرقه وانتزع الجلد وسبب المأ وتشويهاًفظيعين. يحمل حطحوط العلبة الى زميل موكل اليه امر املائها . . يتناول هذا القير بوعاء طويل ويملأ بهالعلبة فيتصاعد في تلك اللحظات دخان اسود قاتم ينتشر تحت الانف ويتسرب الى الرئتين فيجعل التنفس امراً عسيراً ويملأ العينين فيدمعهما ويؤلمهما .يتحمل حطحوط هذه المضايقات كما يتحملها كل انسان ، فقد آخر خيط يربطه بالسعادة وانصبت جهود ذراعيه لتوفير الخبز للمعدة الجائعة ، يرفع العلبة بحذر شديد حريصاً ابلغ الحرص ان يجعلها قائمة على رأسه باستقامة وثبات ، وغالباً ما يناجي نفسه فيقول ترى ما الذي يحدث لو انكفأت العلبة فوق رأسي وتساقط علي هــذا الجحيم المدمر ، انها لكارثة فادحة لايمكن لاحد ان يطيل التفكير فيها دون ان يستبد بفؤاده الفزع . . يمشي مشية مقيدة موزونة حتى يصل الى نقطة العمل فيفرغ محتويات العلبة ويعود مرة اخرى .

انقضت بضعةشهور وحطحوط ينقل علبالقير ويقبض خمسة دراهم في نهاية النهار فتتحول الى ارغفة الخبز واقداح الشاي وسقاط الفاكهةالمتعفنة لدى الباعة ، وحدث ان شغرت وظيفة الوقاد وكان اجرها ستة دراهم في اليوم فرشحوه لها لما كان يتمتع به من قوة عضلية ومتانة بناء استهوت رؤساءه فكان ذلك فوزاً عظيماً لحطحوط .

غدا من يومه ذاك يطعم الاتون بجذوع النخيل المتهرئة والزيت الاسود المفرقع ، فيجعل اللهب يندلع والنار تشب وتتأجج ، فيتناول قضيباً طويلاً من الحديد يحرك به القير المغلي المبقبق بالادخنة والفقاعات ليساوي بين جوانبه وطبقاته ، اما الدخان الكثيف المنتشر تحت انفه والنافذ الى قعر رئتيه فلم يعبأ له حطحوط ، كان يتراكم فوق جلبابه ورأســه وسائر جسده فكأنه والقضيب جسم واحـداسود ، بعضه يتحرك وينثني وبعضهصلبجامد .

الا ان واجبات الوقاد لم تنته عند هـذا الحد « الهين » بل يتعين عليه ان يرعى القير في ساعات الليل فيغطيه بدثار سميك من الصفائح القصديرية لئلا يتساقط عليه الندى فيبلله ويسلب حرارته ، ويتعين عليه ايضا ان يستيقظ قبل انبلاج الفجر فيعالج النار الخامدة ويؤرث لهيبها . كان هـذا الشطر من العمل يضايقه ويضجره ويحرم حطحوط من ساعات نومه الهانئة التي يخلو فيها الى احلامه ، انها احلام رجل ساذج قروي يعبر الحياة في صمت وهدوء عبور دودة في شق خفي في جوف الارض . . يريد ان يتزوج من فتـاة في في قريته يحبها ويتمناها غير ان اهلها يفرضون عليه « اتاوة » المرأة وانهيدبر فى ذهنه انجع الوسائل لتوفير هذه الاتاوة . .

غالباً ما يبهره تألق القمر فى اول ساعات الليل فيحسب ان الفجر موشك ان يطلع عليه ، وحيناً تغشه الظلمة وتخدعه فيغط فى نومه حتى يقبل العمال فيلقون القير بارداً وقد بلله الندى فيكرمونه بقـدر طيب من الشتائم والاهانات فيتقبلها بصدر ضيق كظيم . .

ذات مساء انهمك العمال في تبليط شارع طويل ، فلازم حطحوط الاتون ساعات طويلة حتى هـده التعب واحمرت عيناه ودمعتا ، فآوى الى فراشه يلتمس راحة النوم فأخذته غفوة ثقيلة حسبها حطحوط كأنها الدهر

فهب من نومه مذعوراً . . ولم يدر احد اي قدر دفعه في تلك الساعة الى فتح عينيه فأخذ ينظر بهما بقلق وحيرة وبلادة ، كانتا تؤلمانه فيخيل اليه ان الوقت قد ادركه وسرعان ما ينبلج الفجر ، الظلام الدامس يكتنفه من كل جانب وغدت الارض كالقير سواداً ، فقام يمشي مترنحاً مستعيناً على تبين طريقه بقوة التعود كما يفعل الاعمى، فوضع قدمه على حين غرة في مكان ما فلم تصل الارض بل انغمست في سـائل لزج مغلي اجتذب جسده كله ،فصرخ صرخة ألم واحدة ضاعت في احشاء الليل الاسود ثم تهاوى كله في وسط القير حتى غطس في جوفه . وفي الفجر حضر العمال فوجدوا الاتون مفتوحاً وقطرات الندى قد بللته فلعنوا حظحوط وسبوه ، وبعد بضع دقائق ترحموا على روحه عندما كانت جثته المسودة المهترئة مسجاة على الارض ، فتساقطت في تلك اللحظات دموع كثيرة حارة الا انها اقل حرارة من القير الذي التهم صديقهم .

مطبعة النجوم ـ بغداد